



كتاب الهدى

أبو الشيخ
الحسين بن علي

تأليف

عبد الله بن محمد العقاد



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهدى



كتاب الهلال

مجلة شهرية تصدر عن «دار الهلال» شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكري زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٤ - سبتمبر ١٩٥١ - ذي الحجة ١٣٧٠

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك - القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر

التليفون : ٧٩٨١٠٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) - مصر والسودان

٨٥ قرشا صاغا - سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية

٨٠ ليرة - الحجاز واليمن ١١٠ قروش

ات - في سائر

أو ٣٠/٩ شلنا

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

أبو الشَّصَاءِ الحسين بن علي

تأليف
عباس محمود العقاد

دار الزهد والهمز

مقدمة

يسرني أن أقدم الى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبى الشهداء » فى سلسلة كتب الهلال ، ويعظم رجائي أن يصل الى أيد كثيرة غير التى وصل اليها فى طبعتيه السابقتين ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسائل

ليس من عادتي أن أطلع فى كتبى بعد الفراغ من طبعها، ويتفق أن تمضى السنوات دون أن ألقى عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فاذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها الى طبعة جديدة ، أمكننى أن أشعر بها شعور القارئ الذى يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذى امتلأ بها وأدارها فى نفسه عدة مرات . وقد استغرب منها أمورا كالتى يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » .

عجبا ! ان مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يصلونها نارا حامية من عبيد البطون والاكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء !

كان هذا شعورى بكتاب أبى الشهداء حين قرأته من جديد
لتقديمه الى هذه الطبعة من كتب الهلال : مسكينة هذه
الانسانية ! لا تزال فى عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل
لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الاثرة
والانانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة
الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد
فى هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لانه
الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا ماديا فعليا
وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما
وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات
الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها
حقيقة واقعية عملية فى كل شئ الا فى ضمير الانسان
وروح الانسان

حقيقة واقعية فى اشتباك المصالح التجارية ، وفى اتصال
الاخبار بين كل ناحية من الكرة الارضية وناحية أخرى
بحقيقة واقعية فى أعصاب الكرة الارضية اذا صح هذا
التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها فى أقصى المشرق
حتى تتداعى له سائر الاعصاب فى أقصى المغرب وفى أقصى
الشمال والجنوب

حقيقة واقعية فى كل شئ الا فى ضمير الانسان ، وفى روح
الانسان ، وهذا هو المهم والاهم اذا أريدت للانسانية وحدة
صحيحة صالحة جديرة بالدوام

ولن توجد هذه الوحدة الا اذا وجد الشهداء فى سبيلها .
فأنعم بمقدم « أبى الشهداء » من جديد الى ضمائر فريق

كبير من بنى الانسان ، لعلمهم يقدمون رسالته خطوة واحدة
أو خطوات فى سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق
والكمال

نتفاعل أو لا نتفاعل ..

نتشاعم أو لا نتشاعم ..

ليست هذه هى المسألة ، وانما المسألة هى ان طريق
التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق
مصلحة الانسانية الا اذا عمل لها كل فرد من أفرادها ،
وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف
من يقدم على الاستشهاد ، ومن ورائه من يؤمن بالشهادة
والشهداء .

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق
الرياضية . فلا بقاء للانسانية بغير العمل لها ، ولا عمل
لها ان لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته فى سبيلها
لا بقاء للانسانية بغير الاستشهاد ..

وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل
زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية الى ذكرى
شهيدها الاكبر فنحنى الرؤوس اجلالا لأبى الشهداء

عباس محمود العقاد

مزا جان تا ترخيان

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما إذا اصطدما - ولا سيما في الأعمال الكبيرة - لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا للأريحية حتى يجب المنفعة ويخفيها . وهذا للمنفعة حتى يجب الأريحية ويخفيها .. أو كذلك يتراءيان

وأصحاب المطالب الكبرى في التاريخ يعتمدون على هذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من طموح الى النبيل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر في سبيل العظام

ولكل منهما سبيله الى النفوس وأمله في النجاح على حسب الأوقات والبيئات ..

الا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التي لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ..

لأن منفعة الانسان وجدت لفرد من الأفراد ..

أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الانساني كله . ومن ثم يكتب لها الدوام اذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما نقول، لأن المريض على منفعته يبلغها ويمضي قدما اليها ، فينال المنفعة التي لا ينالها صاحب الأريحية لأنه يتركها اذا اصطدمت بما هو أجل منها

وهذا صحيح مشهود لا مرأ فيه ..

ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحا اذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فاذا قيل ان حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بدهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهي الباقية بعد ذهابهم : ومن هنا يصح أن يقال ان الأريحية أبقي وأنجح اذا هي اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين

وأصحاب الأريحية اذن أبعد نظرا من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير . فهم - شعروا أو لم يشعروا - بعيدو النظر الى عواقب الأمور ، وان خيل الى أناس أنهم طائشون متهمجون

أما موقف المؤرخين في العطف على حركات التاريخ فهو على ما ترى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبيل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير . .
فالذين يجنحون بمزاجهم الى المنفعة يفهمون أعداء المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقدتهم . .

والذين يجنحون بمزاجهم الى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبون عذرا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق

الا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :
الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه . .

وان العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه وإهماله ، اذ كان تركه مناقضا لصميم الفطرة التي من أجلها فطر الناس على الإعجاب بكل ما يستحق الإعجاب .
فليس يخشى على الناس يوما أن ينسوا منافعهم ويقصروا في خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين

ولكنهم يخسرون الأريحية اذا فقدوها وفقدوا الإعجاب بها والتطلع اليها ، وهي التي خلقت ليعجب بها الناس .
لأن حرص الانسان على منفعته لا يغنيهم في حياتهم العامة أو في حياتهم الباقية ، أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان نفسه في سبيل معنى من المعاني أو مثل عال من الأمثلة العليا ، فهي الخليقة النافعة للنوع الانساني بأسره ،
وان جاز اختلافهم في كل معنى وفي كل مثل عال

صراع بين الأريحية والمنفعة

فى ماضى الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التى وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ..

ولكننا لا نحسبنا مهتدين الى نموذج لهذا الصدام أوضح فى المبادئ وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معا من النموذج الذى عرضه لنا التاريخ فى النزاع بينهما على عهد الحسين بن على ويزيد بن معاوية

قلنا فى كتابنا « عبقرية الامام » ما فحواه ان الكفاح بين على ومعاوية، لم يكن كفاحا بين رجلين أو بين عقليين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحا بين الأمامة الدينية والدولة الدنيوية ، وأن الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون الى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون الى الإمامة من حزب الامام

ولو حاول معاوية ما حاوله على لأخفق وما أفلح ، ولو أراد على أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئا عند محبيه ولا عند مبغضيه

فاذا جاز لأحد أن يشك فى هذا الرأى ، وأن يرجع بنجاح معاوية الى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز فى الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال ان أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الإمامة على سبب الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الإمامة غير مطالب الزمان

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعا بين رجلين
أو بين عقليين وحيلتين . وإنما هو الصراع بين الامامة والملك
الدنيوى ، أو بين الأريحية والمنفعة فى جولتهما الأولى ،
ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من
الفوز والغلبة . . .

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع
عامة من « تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » . . . فان
يزيد لم يكن له فضل قط فى قيام الدولة كما قامت على
عهده وبعد عهده . وإنما كانت الدولة تتماسك برغبة
الراغبين فى بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد
حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاوية الثانى بالشام
- وكان من الزاهدين فى الحكم - فنادى الناس الى صلاة
جامعة ، وقال لهم : « أما بعد فانى قد ضعفت عن أمركم
فأبتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر
فلم أجده ، فأبتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ،
فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ثم أوى الى بيته
ومشت شئون الدولة على حالتها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ،
وله مع هذا منافس قوى كعبد الله بن الزبير بالحجاز



فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية . .
ورأى معاوية وأعوانه فى هذا أسبق من رأى الطالبين
وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيرا قبل الجهر باختيار
يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه . ولم يستحسنوا

ذلك قبل ازجائهم النصيح الى يزيد غير مرة بالاقلاع عن عيوبه وملاهيه . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابا « يصغر اليه نفسه » . قال : « وما عسيت أن أعيب حسينا ؟ والله ما أرى للعيب فيه موضعا »



وتم تعلقة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبته علي « علي » بحجته في الاقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه في الدعوة السياسية . . .
فهذه التعلقة ان صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هي بصالحة لتعليل نجاح يزيد . . .

لأن الذين اتخذوا أو اتخذوا للصيحة التي صاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدونهم على ترديدها فقد الثار المزعوم وسورة العصبية المتهاجة ، ثم يساعدونهم على ترديدها في مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرا بطلب الخلافة ولا متعرضا لمزاخمة أحد على البيعة ، وإنما كان يتشبه بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا أن الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وأن معاوية

لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ،
وليس هو من أهل الرأي ولا هو من أهل الصلاح ولا هو
ممن تتفق عليهم آراء هؤلاء ، ولكنه فتى عرييد يقضى ليله
ونهاره بين الخمر والطناير ، ولا يفرغ من مجالس النساء
والندمان الا ليهرع الى الصيد فيقضى فيه الاسبوع بعد
الاسبوع بين الأديرة والبوادي والآجام ، لا يبالي خلال
ذلك تمهيدا لملك ولا تدريبا على حكم ولا استطلاعا لأحوال
الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار اليه من
التمهيد والتوطيد وما سوف يصير

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين علي ومعاوية غير جائز
في المفاضلة بين الحسين ويزيد . وإنما الموقف الحاسم بينهما
موقف الأريحية الصراح في مواجهة المنفعة الصراح . وقد
بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر
الحسين بأشرف ما في النفس الانسانية من غيرة على الحق
وكرهه للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما في النفس
الانسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء

أقام الحسين ليلته الأخيرة بكر بلاء وهو لا ينتظر من
عاقبته غير الموت العاجل بعد سويحات ، فأذن لأصحابه أن
يتفرقوا عنه تحت الليل ان كانوا يستحيون أن يفارقوه في
ضوء النهار . فأبوا الا أن يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن
عوسجة الأسدى : « نحن نتخلي عنك ولم نعذر الى الله في
أداء حقك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم
رمحي وأضربهم بسيفي ما بقي قائمه بيدي ، ولو لم يكن
معى سلاحى لقدفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

وقد بر بقسمه وبقي ومات .. ودنا منه حبيب بن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا أنى أعلم أنى فى أثرك لاحق بك لاحببت أن توصينى حتى أحفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا - رحمك الله - أن تموت دونه » وأوماً بيده نحو الحسين

وقتل الحسين وذهب الأمل فى دولته ودولة الطالبين من بعده الى أجل بعيد، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهن على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها

فلما نعى الحسين فى الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة الجامعة . وصعد الى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد ابن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته »

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدى الذى ذهب عينيه يوم الجميل وذهب عينه الأخرى يوم صفين . فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة ! أقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه »

فما طلع عليه الصباح الا وهو مصلوب .. الى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الانسانية نصرة الحسين ..

والى الأغوار المرذولة من الحسة والأثرة هبطت بالنفس

الانسانية نصرة يزيد . وحسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة دمارها فيسرعون الى الجزاء . . يسرعون اليه وليسوا هم بكافرين بالنبي الدفين في تلك المدينة ، فيكون لهم عذر الاقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم !

بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرددون من مواجهة الحسين بالضرب في كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب ! ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده ، لكانوا في شرعة المروءة أقل خسة من ذاك



وتتقابل وسائل النجاح في المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات . .

فكان شعار معاوية وأشياعه : « ان لله جنودا من العسل » وهو يعنى العسل الذى يداف بالسم ليخلى طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الأصدقاء . فكشرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي والأشتر النخعي بهؤلاء الجنود ! وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن ابن خالد ، وقد كان نصيرا لمعاوية في حروب الشام . . فانه مات مسموما على ما اشتهر من الروايات ، لانه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد ! وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن ابن خالد فقتلوا طبيب معاوية « ابن أثال » الذى اتهموه بسمه في الدواء

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ،
لكانوا وشيكن أن يبلغوا مقصدهم من قريب . فقد كان
هانيء بن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت
كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل انه « اذا صرخ لباه منهم
ألف سيف » . فزاره عبيد الله بن زياد - والى يزيد على
الكوفة - ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله إليه .
وقيل ان هانيئا عرض على مسلم بن عقيل بن أبي طالب أن
يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنده ، وقيل ان الذي عرض
ذلك رجل من صحبة هانيء المقربين . فأبى مسلم ما عرضه
هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالي ، وجنوده قد تعقبوه
وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ،
وقال : « انا أهل بيت نكره الغدر » . ولو أنه بطش بابن
زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد . .

وليقل من شاء ان قتل ابن زياد كان صوابا راجحا . .
وان التحرج من قتله كان خطأ فادحا من وجهة السياسة
أو من وجهة الأخلاق ، فالذي لا يشك فيه أنه ان كان
صوابا فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وان كان خطأ
فهو الخطأ الصعب الذي لا يستطيعه الا القليلون



كذلك يقول من يقول ان الأريحية التي سمنت اليها
طبائع أنصار الحسين ، انما هي أريحية الايمان الذي يعتقده
صاحبه أنه يموت في نصره الحسين فيذهب لساعته الى
جنات النعيم . . فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون

المنفعة وحدها باعث الانسان الى جميع أعماله، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان . وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها الفرد طوعا أو كرها في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟ انهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ويقنعون بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة في الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر اذن في آخر المطاف الى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين

وكذلك يقول من يقول ان الأريحية في نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه الى يومه الأخير . . وينسى هؤلاء ان الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسبر في مكان واحد كما يسبر في كل مكان ، وانما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذي تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين . .

فمدار الخلاف اذن في هذه الجولة التاريخية انما هو الفارق الحاد بين مزاجين بارزين كائنا ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامة في النزاع بين

الطالبين والأُمويين، وخاصة في النزاع بين الحسين ويزيد
.. فحياة الحسين رضى الله عنه صفحة لا صفحة تماثلها في
توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل
منهما من عدة للنجاح في كفاح الحياة، سواء نظرنا الى الأمد
البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب



الخصومة

أسباب التنافس والخصومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع الى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين: من العصبية، الى الترات الموروثة، الى السياسة، الى اختلاف الخليفة والنشأة والتفكير

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية . . فخرج أمية ناقما الى الشام وبقي هاشم منفردا بزعامة بنى عبد مناف في مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز

ثم علا نجم « أبى سفيان بن حرب بن أمية » في الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة الى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المجددية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان في طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبى سفيان أصعب ظاهرة في تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاعت المصادفات زمنا من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش في حربه

للنبي عليه الصلاة والسلام . فمات الوليد بن المغيرة زعيم
مخزوم ودان زعماء تيم وبنى عدى وغيرهم من البطون
القرشية الصغيرة بالاسلام ، وبقي أبو سفيان وحده على
رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية في منازل النبي
ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وبلغ من تغلغل العداء
في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، أن أبا لهب
عمه كان أوحد أعمامه في الكيد له والتأليب عليه ، وإنما
جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان
التي وصفها القرآن بأنها حمالة الحطب . . كناية عن السعى
في الشر وتأريث نار البغضاء . .

ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر الى جيش المسلمين
ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد
أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما » . . فلما قال العباس :
« انها النبوة ! » قال : « نعم اذن ! » . .

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة وكان
اسلام بيته أعسر اسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجته
هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد اسلامه : « أقتلوا
الحبيث الدنس الذي لا خير فيه . . قبح من طليعة قوم . .
هلا قاتلتهم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ! »

وظل أبو سفيان الى ما بعد اسلامه زمنا يحسب غلبة
الاسلام غلبة عليه ، فنظر الى النبي مرة وهو بالمسجد نظرة
الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : « ليت شعري بأي شيء
غلبني ! » فلم يخف عن النبي عليه السلام معنى هذه
النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له :

« بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! »

وكان في غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول:
« ما أراهم يقفون دون البحر ! » وقيل انه كان في حروب
الشام يهتف كلما تقدم الروم : « ايه بنى الاصفر » ، فاذا
تراجعوا عاد فقال : « ويل لبنى الاصفر ! »

وقد تألفه النبي عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة
وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته
بعد الفتح حرما « من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره
فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزداد لهم
في العطاء عسى أن يذهب ما في نفوسهم من الكراهة لغلبة
الاسلام .

ومع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون اليه
ولا يقاعدونه ، حتى برم بذلك وأحب أن يمسح ما يصدورهم
من قبله . . فتوسل الى النبي أن يجعل معاوية كاتبا بين
يديه وأن يأمره ليقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين

ثم قبض النبي عليه السلام ، ونجم الخلاف على مبايعة
الخليفة بعده بين المهاجرين والانصار وبين بعض الصحابة
من جهة أخرى . . فاشرب أبو سفيان الى هذه الفتنة ،
وخيل اليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها الى السيادة
على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الاسلامية
بأسرها . فدخل على « علي » والعباس يثيرهما ويعرض
عليهما المعونة بما في وسعه من خيل ورجل . فنادى بهما :
« يا علي ! وأنت يا عباس ! . . ما بال هذا الأمر في أذل
قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه - علي

أبى بكر - خيلا ورجلا وأخذنها عليه من أقطارها «
وهو ولا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم،
ولا كان يسره أن تصير الخلافة اليهم فتستقر فيهم قرارا
لا طاقة له بتحويله .. ولكنه أراد خلافا يفتح الباب لزعامة
أموية يملك بها زمام قریش والدولة العربية جمعا

فلم يخف مقصده هذا على «علي» رضى الله عنه، وقال له :
« لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا
رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خيلناه وإياها » ثم أنه قائلا:
« يا أبا سفيان ! ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ،
وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض .. متخاونون وان
قربت ديارهم وأبدانهم »

وانقضت خلافة أبى بكر وخلافة عمر والأُمور تجرى فى
مجرأها الذى يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب
الفتن أن يبرزوا بها من جحورها ..

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون
أيما انتصار ، لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب للزعماء
بيوتهم ، وأصبحت الدولة الإسلامية أموية لا يطمع فى
خيراتها ولا ولاياتها إلا من كان من أمية أو من حزبها .
فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغدق العطاء على
الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبى سفيان
والى الشام يجتذب اليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم
العون ويخشى منهم الخلاف

فلما قتل عثمان رضى الله عنه كان المنتفعون بمناصب
الدولة وأموالها جميعا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين،

ومال السلطان الى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين
وغير القرشيين

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعا معروفا النهاية من
مطلع البداية ، فقتل على بن أبى طالب غيلة وخلصت الخلافة
لمعاوية بن أبى سفيان . .

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي ،
فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره بجدالهم ، وكان رجلا
سكيتا يكره المنازعة ويجنح الى العزلة ، فصالح معاوية على
شروط . . . وفى له معاوية بالمعجل منها والتسوى عليه
بمؤجلها ، وزاد على ذلك كما تواتر فى شتى الروايات أنه
أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدا أن يزوجها
يزيدا ويعطيها مائة ألف درهم . فوفى بوعد المال ولم يف
بوعد الزواج

وقد أوصى الحسن رضى الله عنه أن يدفن عند قبر جده الا
أن تخاف فتنة . فلما توفى أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام
مروان بن الحكم وجمع بنى أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه . .
فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبی أن يدفن الى جوار
جده ، فقليل له : « ان أخاك قال اذا خفتم الفتنة ففى مقابر
المسلمين سعة . . وهذه فتنة » . . فسكت على مضض

أهداف معاوية

وقد كان معاوية ولا ريب ينوى أن يجعلها دولة أموية
متعاقبة فى ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له
المجال من أقوى منافسيه ، الا أنه كان يتردد ويتكتم ولا

يفضى بنيته الى أقرب المقربين اليه . ثم كبرت سنة وخاف
أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد
وتوسل الى ذلك بما طاب له من وسيلة . . فلباه أهل الشام
وكتب بيعته الى الآفاق ، ثم همه أمر الحجاز فكتب الى مروان
ابن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد .
فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالاباء ، لأنه كان يتطلع
الى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما
اشتهر به من نقص وعيب . . فعزله معاوية وولى سعيد بن
العاص مكانه ، فلم يجبه أحد الى ما أراد . فكتب معاوية
الى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن
جعفر ، والحسين بن علي ، وأمر عامله سعيدا أن يوصل
كتبه اليهم ويبعث اليه بجواباتها . وقال لسعيد : « فهمت
ما ذكرت من إبطاء الناس ، وقد كتبت الى رؤسائهم كتابا
فسلمها اليهم . . ولتشدد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك
بالرفق . وانظر حسينا خاصة فلا يناله منك مكروه ، فان
له قرابة وحقا عظيما لا ينكره مسلم ولا مسلمة . . وهو
ليث عرين ، ولست آمنك ان ساورته ألا تقوى عليه »

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة في اقناع وجهاء الناس
وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية الى مكة ومعه
الجند وحقائب الأموال . . ودعا بأولئك النفر فقال لهم :
« قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم . يزيد أخوكم
وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا
أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه »

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيره بين أن يصنع كما

صنع رسول الله اذ لم يستخلف أحدا ، أو كما صنع
أبو بكر ، اذ عهد الى رجل ليس من بنى أبيه ، أو كما صنع
عمر اذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من
ولده ولا من بنى أبيه

فقال معاوية مغضبا : « هل عندك غير هذا ؟ »

قال : « لا .. »

والتفت الى الآخرين يسألهم قائلا : « فأنتم ؟ » فوافقوا
ابن الزبير

فقال متوعدا : « أعذر من أنذر ! .. انى كنت أخطب فيكم
فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل
ذلك وأصفح ، وانى قائم بمقالة .. فأقسم بالله لئن رد على
أحدكم كلمة فى مقامى هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى
يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل الا على نفسه ! »

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين
مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « ان ذهب رجل منهم
يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما » .

ثم خرج بهم الى المسجد ورقى المنبر ، فحمد الله وأثنى
عليه وقال :

« هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر
دونهم ولا يقضى الا على مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا
ليزيد فبايعوه على اسم الله

فبايع الناس ..

وهكذا كانت البيعة ليزيد فى الحجاز ..

وفات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها . . فأوصى ابنه « أنه لا يخاف الا هؤلاء من قریش: الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير » . قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه . . فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما ماسة وحقا عظيما .

« أما ابن الزبير فانه خب ضب ، فاذا أمكنته فرصة وثب . . فان هو فعلها فقدرت عليه ، فقطعه اربا اربا الا أن يلتمس منك صلحا . فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت »

خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو الى يزيد في سنة ستين للهجرة، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة، وزیاد ، وعمرو بن العاص، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه . . فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب الى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : « أن خذ حسينا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام »

فبعث الوليد الى مروان بن الحكم يستشير . . وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية

وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بنى أمية ، فإن خرج منهم
فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين :
ظاهرها الشدة في الدعوة ليزيد وباطنها السعي إلى الخلاص
من يزيد ومنافسيه . فقال : « أرى أن تبعث الساعة إلى
هؤلاء نفر فتدعوهم إلى البيعة . أما ابن عمر فلا أراه
يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فإن
بايعا والا فاضرب أعناقهما . »

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم
المنافسين ليزيد . ثم الخلاص من يزيد نفسه بإثارة
النفوس وإيغار الصدور عليه !

وقد ذهب رسول الوليد إلى الحسين وابن الزبير، فوجدهما
في المسجد . . . فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من
مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد :
« إن دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا على بأجمعكم،
والا فلا تبرحوا حتى أخرج عليكم »

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فإن
مثلي لا يعطى بيعته سرا ، ولا أراك تقنع بها مني سرا »
قال الوليد : « أجل ! »

قال الحسين : « فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة
دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا »

ثم اتصرف ومروان غاضب صامت لا يتكلم . . . وما هو
إلا أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد : « عصيتني والله !
لا قدرت منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه »
فأنكر الوليد لجأته وقال له : « أتشير على بقتل الحسين !

والله أن الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة تخفيف الميزان
عند الله »



وهكذا انتهت المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشم الى
مفترق طريق لا سبيل فيه الى توفيق ، ولم تنقطع قط
سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وان غلبها الاسلام فى عهد
النبوة ، وفى عهد الصديق والفاروق

وكفى بالاسلام فضلا فى هذا المجال أنه غلب العصبية
بالعقيدة ، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها !
ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة
وكثيرا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وان طالت به الرياضة
والانقياد

فاتفق كثيرا فى مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن
بدرت الى اللسان بوادى العصبية والنبي عليه السلام حاضر .
فلما أشار عمر بقتل أبى سفيان - على خلاف رأى العباس
فى استبقائه وتألفه ، قال العباس : « مهلا يا عمر ! فوالله
لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا . .
ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف »

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفتشرين على
السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عباد وصاح به : « كذبت
لعمرك الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قامت هذه المقالة
الا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك -
الأوس - ما قلت هذا . . »

وقد مات الفاروق وهو يوصى عليا فيقول : « اتق الله يا علي ان وليت شيئا ، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين » . ثم يلتفت الى عثمان فيقول له : « اتق الله ان وليت شيئا فلا تحملن بنى أمية على رقاب المسلمين »
ومن عجائب الحيل التي تحاول بها الغرائز الانسانية أن تبقى وجودها وتمضي لطيتها أن بنى أمية انتفعوا من حرب الاسلام للعصبية في تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بنى هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون . . . وإذا نهضت هذه الحجة على بنى هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة في هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان يلطف القول الى أبناء علي ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرا الى مجاملة آل علي ومضطرا الى تنقص علي والغض من دعواه . فكان بذلك مضطرا الى النقيضين في آن

انه ملك وبائع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمة والشعور . فكان الناس يفضلون عليا عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقسرة النبي ، ولا بالسابقة الى الاسلام ، ولا بالعراقة في قريش . فتجنب النسب والسابقة وعمد الى شخص علي في منازعات الخلافة ، فاتهمه بتفرقة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التي هو مغلوب بها ويستبقى الدولة التي هو بها غالب . . . ولج في ذلك حتى قتل أناسا لم يطيعوه في لعن علي واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن

على الى شرطه الذى أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه . . وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعورا من حيث حارب عليا فى مقام السمعة والشعور . .

وان مجاملة كهذه التى تحيى الرجل وتغض من قدر أبيه لهى أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلا عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال الى مفترق الطريق

زواج الحسين

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفى قصاص التاريخ ، فأضاف اليها أناس من ثقافتهم قصة منافسة أخرى هى وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين . وهى قصة زواج الحسين رضى الله عنه بزینب بنت اسحق التى كان يهواها يزيد هوى أدنفه وأعياء

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت زوجة لعبد الله بن سلام القرشى والى العراق من قبل معاوية

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته . . فلما علم أبوه سر مرضه أرسل فى طلب عبد الله بن سلام واستدعى اليه أبا هريرة وأبا الدرداء ، فقال لهما ان له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها حليلا غير ابن سلام ، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية فى تكريمه وتقريبه . فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية فى خطبة ابنته ، فوكل معاوية الأمر الى أبى هريرة ليبلغها ويستمتع جوابها . فكان

جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله . فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده . . فاذا هو يلاويه به ويقول بلسان ابنته انها توجس من رجل يطلق زوجته وهى ابنة عمه وأجمل نساء عصره

وقيل ان الحسين سمع بهذه المكيدة ، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاتبا . . فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب : « انك لا تعدمين طلابا خيرا من عبد الله بن سلام » قالت : « من ؟ » قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه فى الرجال » واستشارته فى اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبله رسول الله ، تضعين شفتيك فى موضع شفتيه » فقالت : « لا أختار على الحسين بن علي أحدا وهو ريحانة النبى وسيد شباب أهل الجنة » فقال معاوية متغيظا :

أنعمى أم خالد رب ساع لقاعد

ولم يلبث الحسين أن ردها الى زوجها قائلا « ما ادخلتها فى بيتى وتحت نكاحى رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكن أردت احلالها لبعلها »

فإن صحت هذه القصة وهى متواترة فى تواريخ الثقات ، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل فى هذه الخصومة لا يقبل الأرجاء ، وكان بينهما كما أسفلنا مفترق طريق

انحصان

موازنة

لخص المقرئ المنافسة التي بين الهاشميين والامويين في
بيتين فقال :

عبد شمس قد أضرمت لبنى ها .

شم حربا يشيب منها الوليد

فابن حرب للمصطفى ، وابن هند

لعلى ، وللعسرين يزيد

وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضا موجزا لهذه
المقابلة المتسلسلة بين أفراد الاسرتين لتحقيق الرأى فيها ،
ولكننا نجتزئ هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصاولين من
هاشم وعبد شمس في شخصى الحسين ويزيد . . فأيا كان
الميزان الذى يوزن به كل من الرجلين ، فلا مرأء البتة فى
خير الرجلين

وما من رجل فاز حيث ينبغى أن يخيب ، كما قد فاز
يزيد بن معاوية فى حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان
أحدهما أوضح حقا وأظهر فضلا من الحسين فى خصومته
ليزيد بن معاوية

والموازنة بين هذين الخصمين هى فى بعض وجوهها

موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين
الأسرتين ، وهى موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء
سبعة قرون . فلم يظهر فى هذه القرون أموى قح ، الا
ظهرت فيه الحصال الأموية المعهودة فى القبيلة بأسرها، ولم
يظهر فى خلالها هاشمى قح ، الا رأيت فيه ملامح من تلك
الحصال التى بلغت مثلها الأعلى فى محمد بن عبد الله عليه
السلام

والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع الى عبد
مناف ، ثم الى قريش فى أصلها الأصيل . .

ولكن الأسرتين تختلفان فى الأخلاق والأمزجة وان
اتحدتا فى الأرومة . . فبنو هاشم فى الأغلب الأعم
مثاليون أريحيون ولاسيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية
فى الأغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولاسيما الأصلاء منهم
فى عبد شمس من الآباء والأمهات

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير . .
فان الأخوين فى البيت الواحد قد يختلفان فى الأخلاق
والأعمال ، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعاً
لاختلاف سلسلة الميراث فى الأصول والفروع ، على ذلك
النحو الذى يأذن أحياناً باختلاف الألوان واللامح فى نسل
واحد ، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة .

ومن الثابت الذى لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا
يختلفان حتى فى الصورة والقامة واللامح . .

وفى نسل أمية شبهة تشير إليها ولا نزيد ، فهى محل
الإشارة والمراجعة فى هذا المقام . .

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : « من رأيت من
عليه قریش ؟ » فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمیه
ابن عبد شمس » . فقال : « صفهما لی » . فقال : « كان
عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن الوجه ، فى جبينه
نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنیه كأنهم أسد
غاب » . قال : « فصف أمیه » . قال : « رأيتها شيخا قصيرا ،
نحيف الجسم ضريرا ، يقوده عبده ذكوان » . فقال معاوية :
« مه ! ذاك ابنه أبو عمرو » . فقال دغفل : « ذلك شيء
قلتموه بعد وأحدثتموه » . وأما الذى عرفت فهو الذى
أخبرتكم به »

وذكر الهيثم بن عدى فى كتاب المثالب أن أبا عمرو بن
أمیه كان عبدا لأمیه اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل
أبو الفرج الأصبهاني - وهو من الامويين - ما تقدم فلم
يعرض له بتفنيد

ووضح الفرق بين بنى هاشم وبنى أمیه فى الخلائق
والمناقب فى الجاهلية قبل الاسلام . فكان الهاشميون سراعا
الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه . . ولم يكن بنو أمیه
كذلك . . فتخلفوا عن حلف الفضول الذى نهض به بنو
هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذى اتفق فيه نخبة من
رؤساء قریش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ،
ولياخذن أنفسهم بالتأسي فى المعاش والتساهم فى المال ،
وليمنعن القوى من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب »
واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشترى بضاعة
من رجل زبيدى ولواه بثمانها ، فنصروا الرجل الغريب على
القرشى وأعطوه حقه . .

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية الى نفيل بن عدى ،
قضى لعبد المطلب وقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام
يشير الى فيل ابرهة الذى أغار به على مكة • وقال عن أمية
أنه «معاهر» لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف
مرة لأنه تعرض لامرأة من بنى زهرة ، وكان له تصرف
عجيب فى علاقات الزواج والبنوة • فاستلحق عبده ذكران
وزوجه امرأته فى حياته ، ولم يعرف سيد من سادات
الجاهلية قط صنع هذا الصنيع

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر فى اختلاف
النشأة والعادة - مع اختلاف الحلقة الجسدية - فنرى أنهما
صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس
بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ••

فقد كان بنو هاشم يعملون فى الرئاسة الدينية ، وبنو
عبد شمس يعملون فى التجارة أو الرئاسة السياسية ••
وهما ما هما فى الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن
والتطفيف والتزيف ، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف
بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الايمان
ووسائل الحيلة على النجاح

ويتفق كثيرا فى الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء
الأديان بصفات الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار
والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب

فيما يمارسون من شعائر الكهانة ومظاهر العبادة ،
ويتخذونها صناعة يروجونها لمنفعتهم أو لما يقدرون فيها من
منفعة أولئك الأغرار والجهلاء ..

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهّان
المشعوذين ، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع
أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين .. بل كانوا يؤمنون
بالبيت ورب البيت ، وبلغ من إيمانهم بدينهم أن عبد
المطلب - جد النبي عليه السلام - أوشك أن يذبح ابنه
فدية لرب البيت لأنه نذر «لئن عاش له عشرة بنين لينحرن
أحدهم عند الكعبة» . ولم يتحلل من نذره حتى استوثق
من كلام العرافة بعد رمى القداح ثلاث مرات

والاخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين
أصحابها بما يدعون اليه .. فان لم تكن في بنى هاشم
موروثة من معدن أصيل في الأسرة ، فهي أشبه بسمت
الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة والشعائر المتبعة جيلا
بعد جيل ، وهي أخلق أن تزداد في الأسرة تمكنا بعد ظهور
النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبي
وأقرب الناس اليه ..

وانك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبين - أبناء علي
والزهراء - مائة سنة ومائتي سنة وأربعمائة سنة ، ثم
يبرز لك رجل من رجالها فيخيل اليك أن هذا الزمن الطويل
لم يبعد قط بين الفرع وأصله في الحُصُول والعادات ..
كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من
السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجباً : ان هذه لصنات علوية

لا شك فيها ، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجب من يكلمه ، وتراه يعمل ويجزى من عمل له ، فلا تخطيء في كلامه ولا في عمله تلك الشجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التي اشتهر بها على وآله . وتجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليها أو في دلالة وهما : « الفروسية والرياضة » . .

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومثانة في الأسر يستوى فيها الخلق والخلق ، ونخوة لا تبالي ما يفوتها من النفع إذا هي استقامت على سنة المروءة والاباء . .

فمن يحيى بن عمر ، الى على بن أبى طالب ، خمسة أو ستة أجيال . . ولكن يحيى بن عمر يوصف لك ، فاذا هو صورة مصغرة من صور على بن أبى طالب على نحو من الانحاء ، فمن أوصافه التي وصفه بها الكاتب الأموى أبو الفرج الاصبهاني أنه كان « رجلا فارسا ، شجاعا ، شديد البدن ، مجتمع القلب بعيدا عن رهق الشباب وما يعاب به مثله »

ومما روى عنه « أنه كان مقيما ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد أو الأئمة من حشمه . . فيلوى العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحمله عنه حتى يحمله يحيى رضى الله عنه »

ولما ضايقه الأمراء وضبنوا عليه بجرأيته في بيت المال ، كان يجوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « ان عشنا أكلنا »

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته ببغداد ، فأقبلت عليهم الجموع

المحشودة لقتاله ، وأسرع اليه بعض الأعراب فصاح به :
« أيها الرجل ، أنت مخدوع .. هذه الخيل قد أقبلت » ..
فوثب الى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم
فضربه ضربة بسيفه على وجهه .. فولى منهزما وتبعه
أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالي ما يكون



ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس
صاحبه الهیضم العجلى أنه كان مدسوسا عليه ، وأنه غرر
به لينكص عنه عند احتدام القتال . فأقسم الرجل بالطلاق
أنه لم يكن له فى الهزيمة صنع مدبر .. قال : « وانما كان
يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل ..
وحمل مرة كما كان يفعل ، فبصرت عينى به وقد صرع فى
وسط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابى »
ويحيى الشهيد هذا هو الذى قال ابن الزومى جيميته
المشهورة فى وصف قتاله ومقتله ، وهى طويلة منها قوله
يخاطب أمراء زمانه :

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم
غداة التقى الجمعان والخيل تمعج (١)
لأعطى يد العاني أو ارتد هاربا
كما أرتد بالقاع الظليم (٢) المهيـج

(١) معج الفرس أسرع سيره فى سهولة

(٢) ذكر النعام

ولسكنه ما زال يغشى بلسخه
شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج
وحاشى له من تلكم غير أنه
أبى خطة الأمر الذى هو أسمج
وأين به عن ذاك ؟ لا أين - انه
اليه بعرقينه الزكيين مخرج
كأنى به كالليث يحمى عرينه
وأشسباله لا يزدهيه المهجج
كدأب على فى المواطن قبله
- أبى حسن - والغصن من حيث يخرج
كأنى أراه اذ هوى عن جواده
وعفر بالترب الجبين المشجج
فحب به جسما الى الارض اذ هوى
وخب به روحا الى الله تعرج

وقد أصاب ابن الرومى الوصف والتعليل ، فما كان كل
من يحيى ولا أسلافه من قبله الا عليا صغيرا يتأسى بعلى
الكبير ، أو غصنا زاكيا يخرج من دوحته الكبرى ، والغصن
من حيث يخرج كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع فى أساس
الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة الواضحة بعد
ستة أجيال . فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الاجيال -
وهو بعموده الحديدى وجراته التى لا تتزعزع ويقينه الذى
لا يلوى به الاغراء والوعيد - كأنما هو نسخة أخرى من
جده الكبير الذى يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال ،

وينهد لعمر بن ود وقد تهيئه مئات الابطال ، ويتوسط
الصفوف حاسرا وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال



ولم يكن لبنى أمية - على نقيض هذا - نصيب ملحوظ
من الخلائق المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة
في أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم
كما يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها . بل لعله كان من
شأنه أن يجنح بهم من طرف خفى الى صفات تقابل تلك
الصفات ، ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا . .
فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية
التي دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها فراس
المطامع السياسية . فاشتهر أناس من رؤوسهم بمحاسن
هذه الخلائق ومغائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات
الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات
المراوغة والجشع والاقبال على الترف ومناعم الحياة

ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل
الأسرتين ، كما تقابلا في كثير من الخلائق والخطوط . .
ولكنهما تفاوتتا في تمثيل أسرتيهما كما تفاوتتا في غير ذلك
من وجوه الخلاف بينهما . فكان الحسين بن علي نموذجا
لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجا
لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته
ولم يكن له من مناقبها المحمودة الا القليل

وليس بنا هنا أن نفصل القول في أحوال كل من الرجلين

وخصائص كل من النموذجين ، وليكننا نجتزئ منهما بما
يملا الكفتين في هذا الميزان، وهو ميزان الأريحية والنفعية
في حادث كبير من حوادث التاريخ العربى يندر نظيره في
جميع التواريخ

مكانة الحسين

واذا كانت المعركة كلها هي معركة الأريحية والنفعية ،
فالمزية الأولى التى ينبغى توكيدها هنا للحسين بن على
رضى الله عنه هي مزية نسبه الشريف ومكانه من محبة النبى
عليه السلام ..

ان المؤرخ الذى يكتب هذا الحادث قد يكون عربيا مسلما
أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو
ينكر محمدا وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطئ دلالة
الحوادث التاريخية اذا استخف بهذه المزية التى قلنا أنها
أحق مزايا الحسين بالتوكيد فى الصراع بينه وبين يزيد

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب
الشريف فى نفوسهم أو قيمته فى علوم العلماء وأفكار
المفكرين ، ولكننا المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق
ذلك النسب الشريف فى الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هذا
غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم
يكونوا من حزب الحسين ..

فلولا هذه المزية فى الحسين لما وضح الصراع بين
الأريحية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا
وهناك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك

الدلالة التي كشفت النفس الانسانية في جانبين منها قوين،
يتنازعان حوادث الامم والافراد من زمان بعيد ، وسيظلان
على نزاعهما هذا الى زمان بعيد

ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب انسان الى
قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تنعطف اليه القلوب

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه ، وسمى من قبله
أخاه . . قال علي رضي الله عنه : « لما ولد الحسن سميتته حربا
فجاء رسول الله فقال : (أروني ابني ما سميتموه ؟) .
قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسن) . فلما ولد
الحسين سميتته حربا ، فجاء رسول الله فقال : (أروني
ابني . . ما سميتموه) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل
هو حسين) . . »

وذهب الى الحسين واخوته كل ما في فؤاد النبي عليه
السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد الى الذرية من
نسله . فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما ، ولا يحب أن
يستمتع الى بكاء منهما في طفولتهما ، على كثرة ما يبكي
الاطفال الصغار . وخرج من بيت عائشة يوما فمر على بيت
فاطمة فسمع حسينا يبكي ، فقال : « ألم تعلمي أن بكاءه
يؤذيني ؟ »

وكان يقول لها : « ادعي الى ابني » . . فيشمهما ويضمهما
اليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين . وروى
أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين ، فيرى
الصبي حمرة لسانه فيهش اليه ، وكان عيینه بن بدر ،
شهادة في بعض هذه المجالس فقال متعجبا : « يصنع هذا

بهذا ؟ فوالله ان لى الولد وما قبلته قط ! » . قال عليه السلام : « من لا يرحم ، لا يرحم ! »

وخرج ليلة فى احدى صلاتى العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة . قال راوى الحديث : « فرفعت رأسى فاذا الصبى على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودى ، فلما قضى الصلاة قيل يا رسول الله : انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك . قال : كل ذلك لم يكن . . ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله . . »

وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران . . فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ! . . (انما أموالكم وأولادكم فتنة) . . نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما »



ولا يوجد مسلم فى العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذى غمر به قلبه الكريم شبطية وأحب الناس اليه . فبهذا الحنان النبوى قد أصبح الحسين فى عداد تلك الشخصيات الرمزية التى تتخذ منها الامم والملل عنوانا للحب، أو عنوانا للفخر ، أو عنوانا للألم والفداء . . فاذا بها محبوب كل فرد

ومفخرته ، وموضع عطفه واشفاقه ، كأنما تمت إليه وحده
بصلة القرابة أو بصلة المودة

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان مع الزمن مبلغاً من تلك
المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه في حملة
وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات : فقال بعضهم : « لم
يولد مولود لستة أشهر وعاش إلا الحسين وعيسى بن مريم »
وقال آخرون أنه رضى الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه
أنثى « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب
رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه ابهامه
فيمصه ويجعل الله في ابهام رسوله رزقاً يغذيه ، ففعل ذلك
أربعين يوماً وليلة ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم
رسول الله . . »

وروى عنه غير ذلك كثير من الأساطير التي تحيط بها
الأمم تلك الشخص الرمزية التي تعزها وتغليها فتلتبس
لها مولداً غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقها أو
يوشك أن تلحقها بالحوارق والمعجزات

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفواً لتلك الصورة
الرمزية التي نسجت حولها الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى
منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة

فكان ملء العين والقلب في خلق وخلق ، وفي أدب وسيرة ،
وكانت فيه مشابهة من جده وأبيه . . إلا أنه كان في شدته
أقرب إلى أبيه . قال علي رضى الله عنه مشيراً إلى الحسن :
« ان ابنى هذا سيخرج من هذا الأمر ، وأشبه أهلى بى
الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن
الحلم والأناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي »

صفات الحسين

وقد تعلم في صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، واليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التي يعولون عليها ويردونها الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وقد أوتى ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال إيمان . ومن كلامه المرتجل قوله في توديع أبي ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يا عماه ! ان الله قادر أن يغير ما قد ترى . والله كل يوم في شأن : وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم الى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فان الصبر من الدين والكرم ، وان الجشع لا يقدم رزقا والجزع لا يؤخر أجلا »

وكان يومئذ في نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا الى أن فارقتها في مصرع كربلاء

وتواترت الروايات بقوله الشعر في أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :
اغتن عین المخلوق بالخسالق تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يغنسونه فليس بالرحمن بالوائق
ومنه هذان البيتان في زوجته وابنته :

لعمرك اننى لأحب دارا تكون بها سكينه والرباب
أحبهما وأبذل كل مالي وليس لعاتب عندي عتاب

وهما سواء صحت نسبتهما اليه أو لم تصح ، معبران
عن خلقه في بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حديدا
على الإبناء وأشد الأزواج عطفاً على النساء ، ومن وفاء
زوجاته بعد مماته أن الرباب هذه التي ذكرت في البيتين
السابقين خطبها أشراف قریش بعد مقتله فقالت : « ما كنت
لاأخذ حماً بعد رسول الله » . وبقيت سنة لا يظلمها سقف
حتى فنيت وماتت ، وهي لا تفتقر عن بكائه والحزن عليه

خلق كريم

وقد سئد الحسين لمن بعده سنة في آداب الأسرة تليق
بالبيت الذي نشأ فيه ووكّل اليه أن يرعى له حقه ويوجب
على الناس مهابته وتوقيره ، فهو على فضله وذكائه وشجاعته
ورجحانه على أخيه الحسن في مناقب كثيرة وما أثر عدة كان
يستمتع إلى رأى الحسن ولا يسوءه بالمراجعة أو المخالفة .
فلما هم الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من
الحسين . فلم يوافق وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن
وقال له : « والله لقد هممت أن أسـجـنـك في بيت وأطـن
عليك بابه ، حتى أقضى بشأني هذا وأفرغ منه ثم أخرجك »
فلم يراجع الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت . . .

ومن رعايته لسئد الأسرة ووصايا الأبوة أنه ركب دين
فساومه معاوية بمائتي ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال
على عين « أبى نيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته إلى بعض
ما عرض عليه — لأن أباه تصدق بمائتها لفقراء المدينة ، ولو
أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار فى رعاية أسرته ورعاية
الناس عامة . . فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة
فوصفه لرجل من قريش ذاهب الى المدينة فقال : « اذا
دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على
رؤوسهم الطير ، فتلک حلقة أبى عبد الله مؤتذرا الى أنصاف
سأقيه »

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو
يعلمهم ويبصرهم بشؤون دينهم ، الا أن تكون مكابرة أو
لجاجة فله فى جواب ذلك أشباه تلك القوارص التى كانت
تؤثر عن أبيه

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ
حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين



فمن آدابه وآداب أخيه فى ذلك أنهما رأيا أعرابيا يخفف
الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلظه وقالاه :
« نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء
والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلى عندك ، فان كان عندنا قصور
تعلمنا » . فتنبه الشيخ الى غلظه دون أن يأنف من تنبيههما
اليه . و مر يوما بمساكين يأكلون فدعوه الى الطعام على عادة
العرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجبتكم
فأجيبونى » ودعاهم الى الغداء فى بيته

ورويت الغرائب فى اختبار حذقه بالفقه واللغة كما
رويت أمثال هذه الغرائب فى امتحان قدرة أبيه عليهما

السلام . . . فقل ان اعرابيا دخل المسجد الحرام فوقف
على الحسن رضى الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه ،
فقال لما عرفوه به : « اياه أردت . . جئت لأطارحه الكلام
واسأله عن عويس العربية » . فقال له بعض جلسائه :
« ان كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب » . وأوماً الى
الحسين عليه السلام ، فلما سلم على الحسين وسأله عن حاجته
قال : « انى جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم »
فتبسم الحسين وقال :

- يا اعرابى ! لقد تكلمت بكلام ما يعقله الا العالمون
فأجابه الاعرابى قائلا يريد الاغراب : وأقول أكثر من
هذا ، فهل أنت مجيبى على قدر كلامى ؟ ثم أذن له الحسين
فأنشد أبياتا تسعة ، منها :

هفا قلبى الى اللهو وقد ودع شرخيه
فأجابه الحسين مرتجلا بتسعة أبيات فى معناها ومن
وزنها وقوافيها ، يقول منها :

فما رسم شجائى قد محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين فى بونغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى على تلبيد ثوبيه
الى آخر الابيات . . . ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو
ملك الروم ، والجعلل وهو قصار النخل ، والأيتم وهو
بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ، وفى هذه
الكلمات أوصاف البلاد التى جاء منها وإشارة اليها

فقال الاعرابى : « ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام
كلما ، وأذرب لسانا ، ولا أفصح منه منطقا »

وتلك رواية من روايات علي منوالها ، ان لم تنبئ بما
وقع فهي منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين في
صباه الباكر بالعلم والفصاحة . .

وتحبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء
يرتادونه وبهم من الطمع في اصغائه أكبر من طمعهم في
عطائه . . ولكنه على هذا كان يجرى معهم على شريعة ذوي
الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه
البذل ويؤثرهم على نفسه في خصاصة الحال . وقد لامه
أخوه الحسن في ذلك فكتب اليه « ان خير المال ما وقى به
العرض » الا أنه في الواقع لم يكن يعطى لوقاية العرض
وكفى ، ولكنه كان يعطى من قصده من ذوي الحاجات ولا
يخيب رجاء لمن استعان به على مروة

وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الانسانية
وأليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة
فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه
الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لا نصاره الذين
حرضوه على خلع معاوية أن بينه وبين الرجل عهدا وعقدا
لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة ، وكان معاوية يعلم وفاء
وجوده معا ، فقال لصحبه يوما وقد أرسل الهدايا الى وجوه
المدينة من كسب وطيب وصلات : « ان شئتم أنبأناكم بما
يكون من القوم . . . أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من
الطيب ويذهب ما بقي من حضره ولا ينتظر غائبا ، وأما

الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفيث فان بقي شيء
نحر به الجزر وسقى به اللبن . . . »

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من
معدنه » كما قيل . وهي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها
الابناء بعده ، وقد شهد الحروب في افريقية الشمالية
وطبرستان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعا
من الجمل الى صفين . وليس في بني الانسان من هو أشجع
قلبا ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها في الدم بالوراثة . فتعلم
فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه
ولم تفتته ألعاب الرياضة التي تتم بها مرانة الجسم على الحركة
والنشاط . . ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الاوروبيين
كانوا يسمونها المداحي جمع مدحاة ، وهي أحجار أمثال
القرصة يحفرون في الارض حفيرة ويرسلون تلك الاحجار ،
فمن وقع حجره في الحفيرة فهو الغالب



أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال
الذوق والقصـد في تناول كل مباح . كان يحب الطيب
والبخور ، ويأثـق للزهر والريحان . .

وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية
بيدها طاقة من ريحان فحيته بها . فقال لها : « أنت حرة
لوجه الله تعالى » فسأله أنس متعجبا : « جارية تحيئك
بطاقة ريحان فتعتقها ؟ » قال : « كذا أدبنا الله . . قال

تبارك وتعالى : (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) . . . وكان أحسن منها عتقها »

وكان يميل للفكاهة ويأنس في أوقات راحته لأحاديث أشعب وأصحابيكه ، ولكنه على شيوخ الترف في عصره لم يكن يقارب منه إلا ما كان يجمل بمثله . حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر يصومها غير أيام رمضان ، ولا يفوته الحج عاما إلا لضرورة

وقد عاش سبعا وخمسين سنة بالحساب الهجرى ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون . . فلم يعبه أحد منهم بمعاينة ولم يملك أحد منهم أن ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيبه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له . واقترحوا عليه أن يكتب إليه بما يصغره في نفسه . فقال انه كان يجد ما يقوله في على ، ولكن لا يجد ما يقوله في حسين

تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين .

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المواجهة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة في معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله فيزيد بن معاوية عريق النسب في بنى عبد مناف ثم في قريش، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والتمادحين متفقون على وصف الخلائق التي اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد

مناف . وأشهرها الأثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع
الناس من طريق النفع لأصحابها . وندر من وجوه الأمويين
في الجاهلية أو الإسلام من اشتهر بخصلة تجلب إلى صاحبها
ضررا أو مشقة في سبيل نفع الناس . .

- وببيت أبي سفيان بيت سيادة مرعية لا مرء فيها . .

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نذكرها في هذا المقام أن
معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليرث شيئا من هذه السيادة
التي كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبا سفيان على ما يظهر
قد أضاع ماله في حروب الإسلام ولم يكن له من الوفر
ما يبقى على كثرة الوارث . وروى أن امرأة استشارت النبي
عليه السلام في التزوج بمعاوية فقال لها : « انه صعلوك ! »

كذلك ينبغي أن نذكر حقيقة أخرى في هذا المقام ، وهي
أن معاوية لم يكن من كتاب الوحي كما أشاع خدام دولته
بعد صدر الإسلام ، ولكنه كان يكتب للنبي عليه السلام في
عامة الحوائج وفي إثبات ما يجبي من الصدقات وما يقسم
في أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبي شيئا
من آيات القرآن الكريم

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة
كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك
حلمه في فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حبرا بن
عدي وستة من أصحابه لانهم كانوا ينكرون سب علي
وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول :
« ما قتلت أحدا . الا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حبرا فاني
لا أعرف بأي ذنب قتلته »

وأم يزيد هي ميسون بنت مجدل الكلبية من كرائم بنى
كلب المعسرقات فى النسب ، وهى التى كرهت العيش مع
معاوية فى دمشق وقالت تتشوق الى عيش البادية :
لبس عباءة وتقر عينى أحب الى من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه أحب الى من قصر منيف
ومن هذه الأبيات قولها :
وخرق من بنى عمى فقير أحب الى من عالج عنيف !
فأرسلها وابنها يزيد الى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه
بعيدا عن أبيه ..



وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع
الاقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف فى أعقاب السلالات القوية
تضيرهم وتجهز على ما بقى من العزيمة فيهم
فكان ما استفاده من بادية بنى كلب بلاغة الفصحى ،
وحب الصيد ، وركوب الخيل ، ورياضة الحيوانات ولاسيما
الكلاب

وهذه صفات فى الرجل القوى تزينه وتشجذ قواه ،
ولكنها فى أعقاب السلالات - أو عكارة البيت كما يقال بين
العامة - مدعاة الى الاغراق فى اللهو والولع بالفراغ لأنها
هى عنده كل شئ وليست مددا لغيرها من كبار الهمم
وعظائم الهموم

وهكذا انقلبت تلك الصفات فى يزيد من المسزية الى
النقيصة .. فكان كلفه بالشعر الفصيح مغريا له بمعاشرة

الشعراء والندماء فى مجالس الشراب ، وكان ولعه بالصيد
شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته
للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرادين
والفهادين ، فكان له قرد يدعوه « أباقيس » يلبسه الحرير
ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ،
ويركبه اتانا فى السباق ويحرص على أن يراه سابقا مجليا
على الجياد، وفى ذلك يقول يزيد كما جاء فى بعض الروايات:
تمسك أبا قيس بفضئل عنانها

فليس عليها ان سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به

خيـاـد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغا فى المذمة حين قال
فيما نسب اليه : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن
نرمى بالحجارة من السماء . ان رجلا ينكح الأمهات والبنات
والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معى
أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسنا »



ولكن الروايات لم تجمع على شىء كاجتماعها على ادمانه
الخمر ، وشغفه باللذات ، وتوانيه عن العظام . . . وقد مات
بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها
اصابة الكبد من ادمان الشراب والافراط فى اللذات . ولا
يعقل أن يكون هذا كله اختلافا واختراعا من الأعداء لأن
الناس لم يخلقوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص،

وهما بغيضان أشد البغض الى أعداء الامويين . . ولان الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان

ولم يكن هذا بالتخلف في يزيد من هزال في البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذي يعترى أحيانا بقايا السلالات التي تهم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالا في الاخلاق وسقما في الطوية . . قعد به عن العظام مع وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التي تزيد في وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة . وقد أصيب في ضباه بمرض خطير - وهو الجدرى - بقيت آثاره في وجهه الى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع في البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح



وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهوا وفراغا ، كانت همته الوانية تفتربه عن الطراد حين تتسابق اليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعا عن دينه ودنياه

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف الى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعهم عن بلاد الاسلام - أو بلاد الدولة الاموية - ثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن في طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما ان أبالي بما لاقت جموعهم
بالفرقدونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الانماط مرتقفا
بدير مران عندي أم كلثوم
فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدراً
عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله
فى خلواته



ومن أعجب عجائب المناقضة التي تمت فى كل شىء بين
الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محدودة تقابل
نظائرها من مزايا الحسين ، حتى فى تلك الحُصَال التي تأتي
بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزيد السن
وسابقة الميلاد

فلما تنازعا البيعة كان الحسين فى السابعة والخمسين
مكتمل القوة ناضج العقل وفى المعرفة بالعلم والتجربة ،
وكان يزيد فى نحو الرابعة والثلاثين لم يمارس من شؤون
الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء

ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء
العصور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول فى أمة العرب
حيث نشأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية
الأعمار .. وهذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن
التي تعلو بصاحبها فى الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء
العزيمة

كذلك لا يقال ان «الوراثة المشروعة» فى الممالك كان لها شأن يرجح بيزيد على الحسين فى ميزان العروبة والاسلام . فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سماها المسلمون فى ذلك الزمان ، ولم يكن معقولا أن العرب فى صدر الاسلام يوجبون طاعة يزيد لانه ابن معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبى فى أمر الخلافة لانهم قرابة محمد عليه السلام

فقد شاعت عجائب التاريخ اذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضية تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضح قط فى أمثالها من القضايا ، وقد وجب أن ينخزل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التى أعانتة وهو غير صالح لان يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله . . . ولئن كان فى تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكون هى عصبية القبيلة من بنى أمية ، وهى هنا نزعة مواربة تعارض الايمان الصريح ولا تسلم من الحتل والتلبيس

لهذا شك بعض الناس فى اسلام ذلك الجيل من الامويين ، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك فى صدق دين أبى سفيان لان أخباره فى الاسلام تحتل التأويلين ، ولكن معاوية كان يؤدى الفرائض ويتبرك بتراث النبى ويوصى أن تدفن معه أظافره التى حفظها الى يوم وفاته . وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثانى على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشئ فى بيت مدخول الاسلام ، يتصارج أهله أحيانا بما ينم على الكفر به أو التردد فيه . .

انما هي الاثره ، ثم الخرق في السياسة ، ثم التماذي
في الخرق مع استثارة العناد والعداء .. وفي تلك الاثره
ولواحقها ما ينشئ المقابله من احدى طرفيها في هذه الخصيومه،
ويتم المناظره في شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين،
ونعني بهما هنا المثاليه والواقعيه ، وما الحسين واليزيد الا
المثالان الشاخصان منهما للعيان



أعوان الفريقين

رجال المعسكرين

كان الحسين في طريقه الى الكوفة - يوم دعاه شيعته اليها - يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبثونه عن موقفهم بينه وبين بنى أمية ، وقلما اختلفوا في الجواب ..
سأل الفرزدق وهو خارج من مكة - والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت - فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية » والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء »

وقال له مجرم بن عبيد العامري : « أما اشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك »

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجرم بن عبيد، فان الناس جميعا كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن علي ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بنى أمية ، فهم اذن عليه بالسيوف التي تشهرها الأيدي دون القلوب ..

وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بنى أمية ..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسينا ولا ينصرون الامويين . .
أو كانوا يصانعون الامويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين

ومن هؤلاء هانيء بن عروة من كبار الزعماء فى قبائل كندة ، وشريك بن الأعور ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، وكلاهما من ذوى الشرف والدين

بل كان من العاملين لبني أمية من يخزه ضميره اذا بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بني أمية ليلوذ بالمعسكر الذى كتب عليه الموت والبلاء . كما فعل الحر بن يزيد الرياحي فى كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » فلما قال : « نعم » ترك الجيش الأموي وذهب يقترب من الحسين حتى دانه فقال له : « جعلت فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجت بك فى هذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت . واني تائب الى الله مما صنعت . فهل ترى لى من توبة ؟ »

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! »

فمجمل ما يقال على التحقيق أنه لم يكن فى معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين الا وهو طامع فى مال ، مستमित فى

طمعه استثماته من يهدر الحرمات ولا يبالي بشيء منها في
سبيل الخطام

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوى الراى كعمرو بن
العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياى بن أبية ، وأضرابهم من
أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة
عروش ..

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به
المطامع ويتحللون من التأميم ..

لكن هؤلاء بادوا جميعا فى حياة معاوية، ولم يبق ليزيد
مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة العروش ،
وانما بقيت له شرذمة على غرارہ أصدق ما توصف به أنها
شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر
فرحين

فكان أعوان معاوية ساسة وذوى مشورة ..

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد فى صيد كبير ..
وكانوا فى خلائقهم البدنية على المثال الذى يعهد فى هذه
الطغمة من الناس ، ونعنى به مثال المسخاء المشوهين ..
أولئك الذين تمتلئ صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولاسيما
من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحداث ، فاذا بهم
يفرغون حقدهم فى عداثه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ،
فاذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذى
لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعا هم شمر بن ذى الجوشن ، ومسلم بن

عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق بزمريتهم على مثال قريب
من مثالهم عمر بن سعد بن أبي وقاص

فشمس بن ذى الجوشن كان أبرص كرية المنظر قبيح
الصورة، وكان يصطنع المذهب الخارجى ليجعله حجة يحارب
بها عليا وأبناءه ، ولكنه لا يتخذ حجة ليحارب بها معاوية
وأبناءه . . . كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين
والحقد فى حضرة المال

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة فى مسلاخ انسان
« وكان أعور أمغر ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجايه من
وحل اذا مشى »

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، أنه
أباح المدينة فى حرم النبى عليه السلام ثلاثة أيام، واستعرض
أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت
الأقدام فى الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والآنصار وذرية
أهل بدر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه
من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن لأئمة المؤمنين . . .

وانطلق جنده فى المدينة الى جوار قبر النبى يأخذون
الاموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتل فى تقدير
الزهرى . سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالى .
ثم كتب الى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهلل ،
فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم . . . فما
صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين الا فى مسجدهم !
بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم . . . وأوقعنا بهم السيوف
وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على

جريحهم وانتهبناها ثلاثا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره،
وجعلت دور بنى الشهيد عثمان بن عفان فى حرن وأمان .
والحمد لله الذى شفا صدرى من قتل أهل الخـلاف القديم
والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديما ما طغوا . أكتب هذا
الى أمير المؤمنين وأنا فى منزل سـعيد بن العاص مدنفا
مريضا ما أرانى الا لما بى . . . فما كنت أبالى متى مت بعد
يومى هذا . . . »



وكل هذا الحقد المتأجج فى هذه الطوية العفنة انما هو
الحقد فى طبائع المسخاء الشائئين . . . يوهم نفسه انه الحقد
من ثار عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب فى قريش ، لأن
أباه زيادا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه .
ثم ألحقه معاوية بأبى سفيان لأن أبا سفيان ذكر بعد نبوغ
زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغيا فجاءوه
بجارية تدعى سمية ، فقالت له بعد مولد زياد انها حملت
به فى تلك الليلة . .

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا
يعيرونه بها وينسبونونه اليها ، ومن عوارض المسخ فيه -
وهى عوارض لها فى نفوس العرب دخلة تورث الضغن
والمهانة - أنه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية
فكان اذا عاب الحرورى من الخوارج ، قال : « هرورى »
فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول اشهروا سيوفكم ،

فقال افتحوا سيوفكم . . فهجاه يزيد بن مفرغ قائلاً :
ويوم فتحت سيفك من بعيد

أضمت وكل أمرك للضياع
ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدي والأرجل والأمر
بالقتل في ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففي ذلك
يقول مسلم بن عقيل وهو صادق مؤيد بالأمثال والمثلثات :
« ويقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة
وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئاً » .

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى
عبيد الله بن زياد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ في شرة
الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد يبغضه
ويبغض أباه لأنه كان قد نصح معاوية بالتمهل في الدعوة
إلى بيعة يزيد ، فكان عبيد الله من ثم حريصاً على دفع الشبهة
والغلو في إثبات الولاء للعهد الجديد . .

والذين لم يمسخوا في جبلتهم وتكزينهم هذا المسخ من
أعوان يزيد بن معاوية ، كان الطمع في المناصب والأموال
واللذات قد بلغ بهم ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع
وطمس البصائر ومغالطة النفوس في الحقائق . .

ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي أطاع
عبيد الله بن زياد في وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة
عن نهايتها المشئومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية
في يديه

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الري ، وهي درة التاج
في ملك الأكاسرة الأقدمين . وكان يتطلع إليها منذ فتحها

أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب إليه أنه قال وهو
يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدري واني لحـائـر

أفكر في أمرى على خـطـرين

أترك ملك الرى والرى منيتى

أم ارجع مأثوما بقتل حسين

وفى قتله النار التى ليس دونها

حجاب ، وملك الرى قررة عيني

فإن لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهى ولا شك من

لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه



ومن الواقع الذى لا شبهة فيه أيضا ، أن عمر بن سعد

هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز،

فهو الذى ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثث القتلى

التي لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لحنها على

جانب الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم

ممن قاتل الحسين وذويه

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم

تدعيم سلطان .. ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون

ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما فى أيديهم من

أموال ووعود .. وتسمى مهنتهم مذبحه طائشة لا يبالي من

يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب ..

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم

أعوانا له في ملكه ، قضى عليه من ساعتها أن يكون علاجه
لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك
الدماء ، والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..
وهكذا كان ليزيد أعوان اذا بلغ أحدهم حده في معاونته
فهو جلاد مبدول السيف والسوط في سبيل المال
وكان للحسين أعوان اذا بلغ أحدهم حده في معاونته فهو
شهيد يبذل الدنيا كلها في سبيل الروح ، وهي اذن حرب
جلادين وشهداء



فروج الحسین

الحسين في مكة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك إلا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير في مقدمة نفر الذين أنكروا العهد له في حياة معاوية . .

وكان الوليد بن عقبة بن أبي سفيان والى معاوية يومئذ على المدينة . . فلما جاءه كتاب يزيد بنعي أبيه ، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذوا شديدا ليس فيه رخصة » دعا اليه بمروان بن الحكم ، فأشار عليه بمشورته التي جمعت بين الاخلاص وسوء النية . . وفحواها أن يبعث الى الحسين وابن الزبير ، فإن بايعا والا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الإشارة اليه في محضر مروان . اذ عاد الحسين الى بيته ، وقد غول على ترك المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله . فخرج منها ليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، ولزم في مسيره الى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه كما فعل الزبير مخافة الطلب من ورائه . فصحت في الرجلين فراسة معاوية في هذا الأمر الصغير ، كما صحت في غيره من كبار الأمور

وانصرف الناس في مكة الى الحسين عن كل مطالب بالخلافة

غيره ، ومنهم ابن الزبير . فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه في صباحه ومساءه ، يتعرف رأيه وما نمي اليه من آراء الناس في الحجاز والعراق وسائر الاقطار الاسلامية

فلبث الحسين في مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين الى الظهور وطلب البيعة ، ولاسيما أهل الكوفة وما جاورها . . فقد كتبوا اليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصرونك ، وألحوا في الكتابة يستعجلونه الظهور

وتردد الحسين طوال هذه الاشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتتابعات ، فبداه أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعم من قريب . .

وآثر أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يمهد له طريق البيعة أن رأى فيها محلا لتهيئد ، وكتب الى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتابا يقول فيه : « أما بعد فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدمي عليكم ، وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب الي بحالكم وأمركم ورأيكم . . فان كتب الي أنه قد أجمع رأي ملتكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا ان شاء الله . فلعدري ما الامام الا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام »

ثم بلغ الحسين أن مسلما قد نزل الكوفة ، فاجتمع على

بيعته للحسين اثني عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا، فرأى أن يبادر إليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا في مشورتهم عليه بين موافق ومثبط. وناصح بالمسير الى جهة غير جهة العراق

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى - وهو بعد في المدينة - أن يبعث رسله الى الامصار ويدعوهم الى مبايعته قبل قتال يزيد فان أجمعوا على بيعته فذاك ، وان اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقض الله بذلك دينه ولا عقله »

وكان عبد الله ابن الزبير يقول له : « ان شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحننا لك وبايعناك ، وان لم تشأ البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة فتطاع ولا تعصى »

ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين . . ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الاصبهاني . قال : « ان عبد الله ابن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب اليه من خروجه الى العراق طمعا في الوثوب بالحجاز . . لان ذلك لا يتم له الا بعد خروج الحسين ، فلقية وقال له : « على أي شيء عزمتم يا أبا عبد الله ؟ »

فأخبره برأيه في اتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم ابن عقييل ، فقال الزبير : « فما يحبسك ؟ فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت في شيء »



ولعل أنصح الناس له في هذه المسألة كان عبد الله ابن

عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من
الدهاء . . سأله :

— ان الناس أرجفوا أنك سائر الى العراق ، فما أنت
صانع ؟
قال :

— قد أجمعت السير فى أحد يومى هذين
فأعاده ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :
— انى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك . ان أهل
العراق قوم غدر . أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ،
فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم
ثم أقدم عليهم ، فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن ، فان
بها حصونا وشعابا ولا يبك بها شيعة
فقال له الحسين :

— يا ابن عم ! انى أعلم انك ناصح مشفق ، ولكنى
قد أزمعت وأجمعت على المسير
قال ابن عباس :

— ان كنت لابد فاعلا ، فلا تخرج أحدا من ولدك ولا
حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون اليك كما
قتل ابن عفان

السفر الى العراق

وخرج فى الثامن من ذى الحجة لا ينتظر العيد بمكة ،
لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته الى التعجيل بالسفر قبل
فوات الأوان . .

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه

الناس ألوفاً ألوفاً يبايعون الحسين على يديه .. وبلغوا
ثمانية عشر ألفاً في تقدير ابن كثير وثلاثين ألفاً في تقدير
ابن قتيبة

وهال الأمر النعمان بن بشير - والى الكوفة - فحار
فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يوماً بعد يوم ،
فصعد المنبر وخطب الناس معلناً أنه لا يقاتل إلا من قاتله
ولا يثب إلا على من وثب عليه ..

وتسابق أنصار بنى أمية إلى يزيد ينقلون إليه ما يجري
بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومي مولى أبيه أن يعزل
النعمان ويولى الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة إلى البصرة
التي كان يتولاها في ذلك الحين

وقدم عبيد الله إلى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع
إليه عرفاء المدينة - أي مشايخ أحيائها - فأمرهم أن يكتبوا
له أسماء الغرباء ومن في أحيائهم من « طلبة أمير المؤمنين
والحرورية وأهل الريب » ، وأنذرهم « أيما عريف وجد في
عرفته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إليه ، صلب على
باب داره » ، وألغيت تلك العرافة من العطاء «

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهاهم
ويستخرج خفاياهم . فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى
رأسهم هانيء بن عروة ، فقليل له أنه مريض لا يبرح داره ..
وكان يتعلل بالمرض تجنباً للقاءه والسلام عليه ..

فذهب عبيد الله إليه يعود ويتلطف إليه ، وجاء في
بعض الروايات أنه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو

فى بيت هانىء ، فأبى أن يغتاله وهو آمن فى بيت مريض
يعوده

وقال ابن كثير ما فحواه انهم أشاروا على مسلم بن عقيل
بقتله وهو فى دار شريك بن الأعور ، وقد علم شريك أن
عبيد الله سيعوده . . فبعث الى هانىء بن عروة يقول له :
« ابعت مسلم بن عقيل يكون فى دارى ليقتل عبيد الله اذا
جاء يعودنى » . . . فتحن مسلم عن قتله ، وسأله شريك :
« ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغنى حديث عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم (ان الايمان قيد الفتك ، لا يفتك
مؤمن) ، وكرهت أن أقتله فى بيتك » . . . قال شريك :
« أما لو قتلتَه لجلست فى الشجر لا يستعدى به أحد ، ولكفيتك
أمر البصرة ، ولكنك تقتله ظالما فاجرا »

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام

وتضطرب الأقاويل فى وقائع هذه الأيام لتلاحقها
وكثرتها وكثرة رواياتها والعاملين فيها . . ولكن الشائع من
تلك الأقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيسه عبيد الله بن
زياد فى مغالبة مسلم وشيعته ، وانه هرب مرة من المسجد
لان الناس بصرُوا بمسلم مقبلا فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم
بقصره وأغلق عليه أبوابه

واجتمع الى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادى
فى الناس بشعار الشيعة : « يا منصور ! أمت » . ثم تقدم
الى قصر الامارة فى تعبئة كتعبئة الجيش . .

ولم يكن فى القصر الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون
من أهل الكوفة . فخامر اليأس عبيد الله وظن انه هالك

قبل أن يدركه الغوث من مولاه • ولكنه تحيل بما فى وسع
المستميت من حيلة هى على أية حال أجدى وأسلم له من
التسليم ، فأنفذ أنصاره الى كل صوب فى المدينة يعدون
ويتوعدون •• وانطلق هؤلاء الانصار يرجفون بقرب وصول
المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ
البرىء بالمدنّب والغائب بالشاهد ويبذلون المال لمن يرشى
بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد الى حين

مقتل مسلم بن عقيل

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل
الناس عن مسلم بن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء
زوجها والام وراء ولدها والاخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم
حتى يقفلوا الى دورهم أو يدخلوا بهم فى زمرة عبيد الله ••
فيلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فاذا هو
فى خمسمائة من أولئك الآلاف الاربعة •• ثم صلى المغرب
فلم يكن وراءه فى الصلاة غير ثلاثين تسلوا من حوله تحت
الظلام ، وبقي وحيدا فى المسجد لا يجد معه من يدلّه على
منزل يأوى اليه

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل
أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقى من تلك الجموع •• فلم
يروا أحدا ولم يسمعوا صوتا • فخيّل اليهم أنها مكيدة
حرب وان القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل
والمشاعل حتى اطمأن الى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه •
فدعا الى الصلاة الجامعة وأمر المنادين فى أرجاء الكوفة :
« ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب -

رؤوس العرفاء - والمقاتلة ، صلى العشاء الا فى المسجد «
وأقام الحراس خلفه وهو يصلى بمن أجابوه وقد امتلأ
بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلاً : « برئت
ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل فى داره »

وصاح فى رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير ! ثكلتك
أمك ان ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل
ولم تأتى به ، وقد بسطتلك على دور أهل الكوفة فابعث
مراصد على أفواه السكك . . وأصبح غدا فاستبرىء الدور
وجس خلالها حتى تأتىنى بهذا الرجل »

وما هى الا سويعات حتى جىء بابن عقيل وقد دافع
الشرط عن نفسه ما استطاع ، ووصل الى القصر جريحاً
مجهداً ظمآن فأهوى الى قلة عند الباب فيها ماء بارد ، فقال
له أحد أصحاب عبيد الله : « أتراها ما أبردها ! . . والله
لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم فى نار جهنم ! »

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه
بقلة عليها منديل ومعهما قدح فصب منها فى القدح وأدناه
منه ، فاذا هو ينفث الدم فى القدح كلما رفعه للشرب منه
حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه ، فحمد الله وقال : « لو كان
لى من الرزق المقسوم لشربته »

وأدخلوه على عبيد الله فنظر الى جلسائه وفيهم عمر بن
سعد بن أبى وقاص ، فناشده القرابة ليسمع منه وصية
ينفذها بعد موته . فأبى أن يصغى اليه ! ثم أذن له عبيد الله
فقام معه فقال مسلم : « ان على بالكوفة دينا استندنته
سبعمائة درهم ، فبع سنينى ودرعى فاقضها عنى ، وابعث

الى الحسين من يرده ، فاني قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه الا مقبلا »

فعاد عمر الى عبيد الله فأفشى له السر الذي ناجاه به وأوصاه أن يكتمه • ثم دعا غبيد الله بالحرسى الذي قاومه مسلم وضربه على رأسه - واسمه بكير بن حمران - فأسلم مسلما اليه وقال له :

- لتكن أنت الذى تضرب عنقه

وصعدوا به الى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه ، فسقط رأسه الى الرجبة وألقيت جثته الى الناس • ثم أرسل برأسه الى يزيد مع رؤوس سراة فى المدينة كان مسلم يأوى اليهم أول مقدمه اليها ، ومنهم هانىء ابن عروة الذى تقدمت الإشارة اليه ...

طلائع الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل فى التاسع من ذى الحجة ليلة العيد • • وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتله الا وهو فى آخر الطريق

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب الى أهل الكوفة كتابا مع قيس بن سهر الصيدأوى يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه اليه • • فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الحسين بن علي » وينهى الناس أن يطيعوه

فصعد قيس وقال : « أيها الناس .. ان هذا الحسين بن علي خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله اليكم ! وقد فارقتك بالحاجز فأجيبوه ، والعنوا عبد الله بن زياد وأباه .. »

فما كان منهم الا أن قذفوا به من حلق ، فمات .. وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر .. فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبد الله بن زياد، فألقوا به من شرفات القصر الى الارض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه ..



وجعل الحسين كلما سأل قادمًا من العراق أنباء بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاة ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع » ووثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدا الا على بصيرة من أمره وما هو لاقية أن تقدم ولم ينصرف لشأنه .. فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم : « وقد خذلنا شيعتنا .. فمن أحب منكم أن ينصرف فيلنصرف ، ليس عليه منا ذمام » فتفرقوا الا أهل بيته وقليلًا ممن تبعوه في الطريق ..

الحسين والحزن بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذي حسم بطلائع جيش عبيد الله

يقودها الحر بن يزيد التميمي اليربوعي في ألف فارس ،
أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله في
الكوفة

فأمر الحسين مؤذنه بالأذان لصلاة الظهر ، وخطب
أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

— أيها الناس اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم
أن أقدم علينا فليس لنا أمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى
والحق . فقد جئتمكم . . فان تعطوني ما أطمئن اليه من عهودكم
ومواثيقكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم لقدمي
كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه

فلم يجبه أحد . .

فقال للمؤذن :

— أقم الصلاة !

وسأل الحر :

— أتريد أن تصلي أنت بأصحابك وأصلي بأصحابي ؟

فقال الحر :

— بل نصلي جميعا بصلاتك

ثم تياسر الحسين الى طريق العذيب ، فبلغها وفرسان
عبيد الله يلأزمونه ويصرون على أخذه الى أميرهم وصده عن
وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليهم يعظهم وهم
يصغون اليه فقال :

— أيها الناس ! ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول
الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير ما عليه

بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله • ألا وأن
هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ،
وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالغى ،
وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله ، وأنا أحق من غيرى

« وقد أتنى كتبكم ورسلكم ببيعتهكم وانكم لا تسلموننى
ولا تخذلوننى، فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا
الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، نفسى مع أنفسكم وأهلى من أهلكم ، فلکم فى أسوة •
وان لم تفعلوا ونقضتم عهدى، وخلعتم بيعتى، فلعمري ما هى
لكم ينكير، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم
ضيعتم • • ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغنى الله
عنكم ، والسلام »

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه اليه يحذره
العاقبة وينبئه : « لئن قاتلت لتقتلن ! »
فصاح به الحسين :

— أبالموت تخوفنى ! • • ما أدري ما أقول لك • • ولكنى
أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة
رسول الله ، فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأشده :

سأمضى وما بالموت عار على الفستى
إذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما

وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وخالف مشبورا وفارق مجرما

فان عشت لم أندم ، وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

ثم سار الركبان ينظر بعضهما الى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فردة نحو الكوفة • حتى نزلوا بني نوى ، فاذا راكب مقبل عليه بالسلاح ، يحيى الحر ولا يحيى الحسين ، ثم أسلم الحر كتابا من عبيد الله يقول فيه : « أما بعد فجمع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله الا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء • • وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بأنقاذك أمري والسلام » .

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله ابن زياد ويخشى رقيبته الذي أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين - زهير بن القين :

- انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه •
يا ابن رسول الله ! ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم • فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به • فهل من ناجز هؤلاء

فأعرض الحسين عن مشورته وقال :

- اني أكره أن أبدأهم بقتال

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبى بأرض همدان ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشا عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي يذكر الديلم اسم أبيه - سعد - فاتح بلادهم ، وقد

وعد بولاية الرى بعد قمع الثورة الديلمية، فلما قدم الحسين الى العراق قال عبيد الله لعمر :

— نفرغ من الحسين ثم تسير الى عمك

فاستعفاه ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :

— نعم نعيك على أن ترد الينا عهدنا ..

فاستمهله حتى يراجع نصحاء .. فنصح له ابن أخته

حمزة بن المغيرة بن شعبة — وهو من أكبر أعوان معاوية — ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :

— والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الارض لو

كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى اذا أصبح ذهب الى

ابن زياد ، فاقترح عليه أن يبعث الى الحسين من أشرف

الكوفة من ليس يغنى فى الحرب عنهم .. فأبى ابن زياد الا

أن يسير الى الحسين أو ينزل عن ولاية الرى .. فسار على

مضض وجنوده متثاقلون متخرجون ، الأزعاف المرتزقة

الذين ليس لهم من خلاق

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة ..

فندب عبيد الله رجلا من أعوانه — هو سعد بن عبد الرحمن

المنقرى — ليطوف بها، ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال

الحسين ، وضرب عنق رجل جىء به وقيل انه من المتخلفين،

فأسرع بقيتهم الى المسير

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكر بلاء على نحو من خمسة

وعشرين ميلا الى الشمال الغربى من الكوفة . نزل بها فى

الثانى من المحرم سنة احدى وستين

وخلا الجوف في الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه
في اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر في قضية
الحسين دون مراجعة من ذي سلطان . وهما عبيد الله بن
زياد ، وشمر بن ذي الجوشن

عبيد الله المغموز النسب الذي لا يشغله شيء ، كما يشغله
التشفي لنسبه المغموز من رجل هو بلا مرء أعرق العرب
نسبا في الجاهلية والاسلام . . فليس أشبهى اليه من فرصة
ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره فيها بذله ورغمه

شمر بن ذي الجوشن

وشمر بن ذي الجوشن الأبرص الكريه الذي يمضيه من
الحسين ما يمض كل لثيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم
وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ،
فهما في هذه الخلعة متناصحيان متفاهمان ١٠٠

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى
يزيد ويمهد له الولاء في قلوب المسلمين ولو الى حين . .
لولا ذلك الضغن الممتزج بالخائفة الذي هو كسكر المغمور
لا موضع معه لرأي مصيب ، ولا لتفكير في عاقبة بعيدة أو
قريبة . .

فالحسين في أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وإبقائه
بأعينهم في مكان ينال فيه الكرامة ولا يتحفر لثورة

لكنهما لم يفكرا في أيسر شيء ولا أنفع شيء للدولة التي
يخدمانها . . وانما فكرا في النسب المغموز والصورة

الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير ارغام الحسين واشهاد
الدنيا كلها على ارغامه

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه ان الحسين
» أعطاني أن يرجع الى المكان الذي أقبل منه أو أن نسيره الى
أى ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتي يزيد فيضع يده فى
يده «

والذى نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسنانيد أن
الحسين ربما اقترح الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم
يعدهم أن يبايعه أو يضع يده فى يده . . لأنه لو قبل
ذلك لبايع فى مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به
الى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين فى خروجه الى العراق
قد نفوا ما جاء فى ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سميان حيث
كان يقول : » صحبت الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة
الى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته
الناس الى يوم قتله . . فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن
يضع يده فى يد يزيد ولا أن يسيره الى ثغر من الثغور ،
ولكنه قال : » دعونى أرجع الى المكان الذى أقبلت منه أو
دعونى أذهب فى هذه الارض العريضة حتى ننظر الى ما يصير
اليه أمر الناس «

ولعل عمر بن سعد قد تجوز فى نقل كلام الحسين عمدا
ليأذنوا له فى حمله الى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتلته وما
تجر اليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان
الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا

بالبيعة أصحابه من بعده ، ويستقطوا حجّتهم في مناهضة
الدولة الأموية . .

وأيا كانت الحقيقة في هذه الدعوى فهي تكبر ماثمة عبيد
الله وشمر ولا تنقص منها . ولقد كانا على العهد بمثليهما . .
كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم
تخامره أو تغالب اللؤم الذي فطر عليه ، فلا يصدر منهما الا
ما يوائم لثيمين لا يتفقان على خير . .

وكانما جنح عبيد الله الى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب
عمر بن سعد ، فابتدره شمر ينهيه ويجنح الى الشدة
والاعتساف ؛ فقال له :

— أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ! والله
لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة
والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز . . فلا تعطه هذه
المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت
كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلفه في
القيادة ثم يخلفه في الولاية ، فذكر لعبيد الله أن الحسين
وعمر يتحدّثان عامة الليل بين المعسكرين . .

فعدل عبيد الله الى رأى شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب
عنق عمر . ان هو تردد في اكراه الحسين على المسير الى الكوفة
أو مقاتلته حتى يقتل . وكتب الى عمر يقول له :

« أما بعد فاني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه
السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعذّر عنه ولا لتقعد له

عندى شافعا . . . انظر فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم
واستسلموا فأبعث بهم الى مسلما ، وان أبوا فازحف اليهم
حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون . فان قتل
الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع
ظلوم . . فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع
المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جنودنا وخل بين شمر بن
ذى الجوشن وبين العسكر والسلام »

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات . .
ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا
طالب مروءة ، ومضت مئات السنين وهى لا تمحو آثار تلك
الايام فى تاريخ الشرق والاسلام



هل أصاب؟

خطأ الشهادة

خروج الحسين من مكة الى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية . . لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الصواب فيها - ان أصابت - من نحو واحد ينحصر القول فيه ، ولا يأتى الخطأ فيها - ان أخطأت - من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه . وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليك أن يذهب الى النقيضين .

هى حركة لا يأتى بها الا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق . .

هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن تدنينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة . . لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال . .

هى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة ، ولا صفقة

مساوم من مساومي التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره . . . فان قبلته الدنيا قبلها وان لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى اليه . .

هي حركة لا تقاس اذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات، ولكنها تقاس بمقياسها الذي لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو في كل أوان



ولا ننس أن السنين الستين التي انقضت بعد حركة الحسين ، قد انقضت في ظل دولة تقوم على تخطئته في كل شيء وتصويب مقاتليه في كل شيء . .

ان القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة، والتماس العذر له معناه القاء الذنب عليها . وليس بخاف على أحد كيف ينسى الحياء وتبتذل القرائح أحيانا في تنزيه السلطان القائم وتأثير السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه اذن بالأمر الذي يرجع فيه الى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغتمون من عطاياها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفاً غير ذلك السيف ويغتمون من عطاء غير ذلك العطاء

انما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان، وهما البواعث النفسية

التي تدور على طبيعة الانسان الباقية ، والنتائج المقررة التي
مثلت للعيان باتفاق الأقوال

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين
في خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول أنه قد أصاب ..
أصاب اذا نظرنا الى بواعثه النفسية التي تهيمن عليه ولا
يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ..

وأصاب اذا نظرنا الى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ،
لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع
والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة

فما هي البواعث النفسية التي قامت بنفس الحسين يوم
دعى في المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هي بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله
الى صنع غير ذلك الصنيع . وخير لبنى الانسان ألف
مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذي أغضب يزيد
ابن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الانسان على ذلك الخلق
الذي يرضى به يزيد

فأول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي
خامرت نفس الحسين في تلك المحنة الاليمة ، انبيعة يزيد
لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام
في تقدير صحيح ..

فهى بيعة نشأت في مهد الدس والتمليق ، ولم يجسر
معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة في ذلك
التشجيع

كان المغيرة بن شعبه واليا لمعاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله واسناد ولايته الى سعيد بن العاص جريا على عادته فى اضعاف الولاة قبل تمكنهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

— لا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟
ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هيئة . فقال للمغيرة :
— أو ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة أنه ليس بالعسير اذا أرادہ أبوه .
وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصته سانحة وانه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة . .
يرشوه باعانتہ على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة الى أن يقضى فى أمر هذه البيعة ، وله فى التمهيد لها نصيب

فلما لقي معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

— قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

— ومن لى بذلك ؟

قال :

— أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس
بعد هذين المصرين أحد يخالفك

فرده معاوية الى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه
ألا يتعجلوا بإظهار هذه النية .. ثم استشار زياد بن أبي
سفيان ، فأطلع هذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول :

— ان أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم
.. ويزيد صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من
الصيد . فائق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له
رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فان دركا في
تأخير خير من فوت في عجلة

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا
يبغضه في ابنه » . وعرض عليه أن يلقي يزيد فيخبره أن
أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وانك
تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وانك ترى له
ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس

وقالوا ان يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه
النصيحة ، وان معاوية أخذ برأى زياد في التؤدة فلم يجهر
بعقد البيعة حتى مات زياد

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من
الغرباء عنه، فكانت امرأته «فاخته» بنت قرطة بن حبيب بن
عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو أثر بالبيعة ابنها
عبد الله ، فقالت له :

— ما أشار به عليك المغيرة ؟ — أراد أن يجعل لك عدوا
من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم

واشتدت نقمة مروان بن الحكم — وهو أقرب الأقرباء
إلى معاوية — حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ
العهد له من أهل المدينة ، وكتب إلى معاوية : « ان قومك
قد أبوا اجابتك إلى بيعتك » • فعزله معاوية من ولاية
المدينة وولاهها سعيد بن العاص • فأوشك مروان أن يثور
ويعلن الخروج وذهب إلى أخواله من بنى كنانة فنصروه
وقالوا له :

— نحن نبلك في يدك وسيفك في قرابك • فمن رميته
بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه • الرأي رأيك ، ونحن
طوع يمينك

ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير إلى دمشق ، فذهب إلى
قصر معاوية وقد أذن للناس ، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى
معه فضربوه واقتحموا الباب • ودخل مروان وهم معه حتى
سلم على معاوية وأغلظ له القول • فخاف معاوية هذا الجمع
من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ، وجعل له ألف
دينار كل شهر ومائة إن كان معه من أهل بيته

ولم يكن مروان وحده بالغازب بين بنى أمية من بيعة
يزيد ، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه
بالخلافة لأنه ابن عثمان الذي تدرع معاوية إلى الخلافة
باسمه • فقال لمعاوية :

— يا أمير المؤمنين • • علام تبائع ليزيد وتتركني ! فوالله

لتعلم أن أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه ، وانك انما
نلت ما نلت بأبى

فسرى معاوية عنه ، وقال له ضاحكا هاشا :

— يا ابن أخى ! أما قولك أن أباك خير من أبيه فيوم من
عثمان خير من معاوية . . . وأما قولك أن أمك خير من أمه
ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وأما أن أكون نلت
ما أنا فيه بأبيك فانما الملك يؤتیه الله من يشاء . . . قتل
أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ،
فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد
فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالا مثلك بيزيد . ولكن
دعنى من هذا القول ولسننى أعظك ، وولاه خراسان

فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملا فى الخلافة بعد معاوية ،
وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء — وان
جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن — لم تكن منافستهم
هذه ليزيد بالعلامة التى تؤذن بالبقاء وتبشره بالضمان
والقرار



وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة
والاكراه . . .

وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء
وظهر من اللحظات الأولى أن المغيرة بن شعبة كان سمسارا
يصافق على ما لا يملك . . . فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع
الخلاف فى غيرهما ، فاذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ،

واذا البصرة تتلکأ فی الجواب ووالیها یرجى الأمر ویوصى بالتمهل فیه فلا یقدم علیه معاویة فی حیاته ، واذا أطراف الدولة من ناحیة همدان تثور ، واذا بالحجاز یتعصى علی بنی أمیة سنوات ، واذا بالیمن لیس فیها نصیر للأمویین . ولو وجدت خارجا یعلن الثورة علیهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز .

بل یجوز أن یقال — مما ظهر فی حركة الحسین کل الظهور — أن الشام نفسها لم تنطو علی رجل یؤمن بحق یزید وبطلان دعوى الحسین . فقد كانوا یتخرجون من حرب الحسین ویتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، الا أن یهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب .

والحوادث التى تلت حركة الحسین الى ختام عهد یزید أدل مما تقدم علی اضطراب عهده وقلة ضمانه ، لأن الاحداث والنذر لم تزل تتوالى بقیة حیاته وبعد موته بسنین

ونحن الیوم نعلم من التاریخ کیف انتهت هذه الحوادث والنذر فی عهد یزید أو بعد عهده ، فیخیل الینا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم یكن بها من خفاء . ولكن الذین استقبلوها كانوا خلقاء الا یروا فیهما طوالع ملك تعنو له الرؤوس ویرجى له طول البقاء

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان یزید فی الخلافة رضى المسلمین من العقل والخلق وسلامة التدبیر وعزة الموثل والدولة ، وكان المسلمون قد توافوا علی اختیاره لحبهم اياه ،

وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم الى سياسته واعتمادهم
على صلاحه واصلاحه ..

ولكنه على تقيض ذلك ، كان كما علمنا رجلا هازلا في
أحوج الدول الى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه
اصلاح . وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة
قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهره وعلانية
من المال أو الولاية أو المصانعة ، ولو قبضوا مثل هذا
الثمن ليبايعوا وليا للعهد شرا من يزيد لما همهم أن يبايعوه
وان تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق .

وأعجب شيء أن يطلب الى حسين بن علي أن يبايع مثل هذا
الرجل ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم
الخليفة المأمول صاحب الحق في الخلافة وصاحب القدرة
عليها . ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه ، أو الخروج !
لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه

ان بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من
الشرقيين ينسبون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من
الرجحان في كف الميزان

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية
في نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وأنه كان
رجلا يؤمن أقوى الايمان بأحكام الاسلام ويعتقد أشد الاعتقاد
أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالامة
العربية قاطبة في حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه
سبط محمد .. فمن كان اسلامه هداية نفس فالاسلام عند
الحسين هداية نفس وشرف بيت .

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه سنتين سنة يسبونه
ويسبون أباه على المنابر ، ولم يجسر أحد منهم قط على
المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين فى أصغر
صغيرة يباشرها المرء سرا أو علانية ، وحاولوا أن يعيبوه
بشئ غير خروجه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة
الصنائع والاجراء دون ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل
خطرا على الدين فى رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة
الهوادة والمشايعة والتأمين ؟ وكيف يسام أن يرشح للإمامة
من لا شفاعاة له ولا كفاية فيه الا أنه ابن أبيه ؟

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية
بشئون الملك والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشiron
أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ما جمح وتقيم ما انحرف
وتملئ له فيها عجز عنه . وهذا ابنه القائم فى مقامه لا كفاءة
ولا وقار ولا نصحاء ولا مشiron ، الا من كان عونا على شر
أو موافقا على ضلالة . فما عسى أن تكون الشهادة له
بالصلاح للإمامة الا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو
الأجر المبذول على هذا التغرير ؟

ثم هى خطوة لا رجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما
أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة . فاذا بايع يزيد فقد
وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا
سيما حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعلل بها
المتعلل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج

فملك يزيد لم يقم على شئ واحد يرضاه الحسين لدينه
أو لشرفه أو للأمة الإسلامية . ومن طلب منه أن ينصر هذا

الملك فانما يطلب منه أن ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا يحمده
له حالة من الاحوال ، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك
كان يقرر دعائمه في أذهان الناس بالغرض من الحسين في
سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه . فكانوا يسبون عليا
على المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا
يتحرون أنصاره حيث كانوا فيقهرونهم على سبه والنيل
منه بمشهد من الناس ، والا أصابهم العنت والعذاب وشهروا
في الأسواق بالصلب والهوان . فمجاراة هذه الأمور
كلها في مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد وجبت
واستقرت الجيل بعد الجيل بغير أمل في التغيير والتبديل .
فمن أقر هذه السنة في مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف
أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوما بعد يوم ، وازداد مع
الزمن ضعفا كما ازدادت حجة خصومه قوة عليه

هذه هي البواعث النفسية التي كانت تجيش في صدر
الحسين يوم دعاه أولياء بني أمية الى مبايعة يزيد والنزول
عن كل حق له ولا بنائه ولا أسرته في امامة المسلمين ، كائنا
من كان القائم بالأمر وبالغا ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان
الحجة . وهي بواعث لا تشنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه
في اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما
الخروج ان كان لابد خارجا في وقت من الاوقات ، أو
التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له ايمان

مصرع وانتصار

اما نتائج الحركة كلها - اذا نظرنا اليها نظرة واسعة -

فهي أنجح للقضية التي كان ينصرها من مبايعة يزيد
فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك
بأقل من أربع سنوات

ولم تنقضى ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء
بكل رجل أصابه في كربلاء ، فلم يكده يسلم منهم أحد من
القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير

ولم تعمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجل واحد مديد
الأجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون
سنة ٠٠١ وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن
في جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء
كل دولة تفتح لها طريقا الى الأسماع والقلوب

ولأصابة هذه الحركة في نتائجها الواسعة دخل في روع
بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضى الله عنه ، توخاه
منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه ٠٠ فلم يخامره
الشك في مقتله ذلك العام ، ولا في عاقبة هذه الفعلة التي
ستحقيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام

فقال ماريين الألمانى في كتابه (السياسة الإسلامية) :
« ان حركة الحسين في خروجه على يزيد انما كانت عزيمة قلب
كبير عز عليه الإذعان وبغز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله
وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته
ويحيى به قضية مخدولة ليس لها بغير ذلك حياة »

فان لم يكن رأى الكاتب حقا كله ، فبعضه على الأقل حق
لا شك فيه ، ويصدق ذلك - في رأينا - على حركة الحسين

بعد أن حيل بينه وبين الذهب لوجهه الذي يرتضيه، فآثر
الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحقق ببني أمية من جراء
قتله . . فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه ما لم يكن ليبلغه
بالنجاة من وقعة كربلاء



وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى
وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه في الحجاز . فقال لهم
« ان الموت حق على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه يركب
الخطئة التي لا يبالي رাকبها ما يصيبه من ذلك القضاء

لكنه لم يكن ييأس من اقناع الناس والتفافهم به منذ
خطوته الأولى . ولم يعقد عزمه على ملاقات الموت حتى ساموه
الرغم وأبوا عليه أن ينصرف الى أي منصرف قبل التسليم
المبين ، مسوقا على الكره منه الى عبيد الله بن زياد

وتتباين آراء المتأخرين خاصة في خروج الحسين بنسائه
وأبنائه ، أكان هو الأحزم والأكرم أم كان الأحزم والأكرم
أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له
أو اعراضهم عنه وضعفهم في تأييده

وليس للمتأخرين أن يقضوا في مسألة كهذه بعقولهم
وعاداتهم ، لأنها مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربي
وعاداته في أشباه هذه المواقف . وقد كان اصطحاب النساء
والأبناء عادة عربية في البعوث التي يتصدى لها المرء معتمدا
القتال دون غيره فضلا عن البعوث التي قد تشبتك في
القتال وقد تنتهي بسلام كبعثة الحسين

فكان المقاتلون في وقعة ذي قار يصطحبون حلائلهم
وذريتهم ويقطعون وضم الرواحل - أي أحزمتها - قبل
خوض المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معا يصطحبون
الحلائل والذري في غزوات النبي عليه السلام ، وكان مع
المسلمين في حرب الروم صفوة نساء قریش وعقائل
بيوتاتها ، وكان النبي عليه السلام يصطحب زوجة أو أكثر
من زوجة في غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم
الكثيرات ، وهي عادة عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على
غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفي معلقة
ابن كلثوم اشارة مجملة الى معنى هذه العادة العربية من
قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا بيض حسان • نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا اذا لم تمنعنونا

وقد كان الحسين رضى الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه
ان قضى عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم في أنفسهم
وفي أبنائهم وأموالهم ، لأنهم يطلبون به ما هو أعز على
المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس من المروءة أن يندبهم
لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه .

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى
حجة في يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم،
اذا غلبوه وأخفق في مسعاته •• فيكون أقوى ما يكون وهو
منتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول

والمسلم الذي ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن
ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته ، والا فما هو

بناصره على الاطلاق ، وتنقلب الآية في حالة الخذلان ، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذي يوشك أن ينقلب عليه

صواب الشهداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز الى العراق، كان حركة قوية لها بواعثها النفسانية التي تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكتبها أو يحيد بها عن مجراها

وانها قد وصلت الى نتائجها الفعالة من حيث هي قضية عامة تتجاوز الأفراد الى الأتباع والاجيال ، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين أم حربا لبنى أمية

انما يبدو الخطأ في هذه الحركة حين ننظر اليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهي زاوية العمل الفردي الذي يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين اليه

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة

وعلة ذلك ظاهرة قريبة ..

وهي أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التي يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ..

وهنا غلطة الشهداء ..

بل قل : هنا صواب الشهداء ..

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم
أنه يصاب لأن الواقع يخذله ولا يجرى معه الى مرماه ؟
ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى « يكلف الأيام
ضد طباعها » ويصدق الخير فى طبيعة الانسان والخير عزيز
والدنيا به شحيحة ؟

منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما
كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث
لا تتسنى خلافة الراشدين، أو حيث تتسنى الدولة الدنيوية
التي يضمن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون اليها
بوسائلها

فكانت عنايته بالدعوة والاقناع أعظم جدا من عنايته
بالتنظيم والالزام ..

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليمين
من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هي
التي أوصى بردها الى أصحابها قبل قتله ..

وتلك عقبة من العقبات التي تعوق الدعوات الكبار ،
ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العvisية التذليل ..



فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية،
لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه . فلعله كان ميسورا
له بعد أن تجمع حوله الأنصار وبائع الحسين على يديه

ثلاثون ألفا كما جاء فى بعض الروايات . ففى تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالى الأموى ويستولى عليه وينشئ الحكومة الحسينية فيه . ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعوة الى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاية ويحشد الأجناد

فاذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا الى الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سيق عبيد الله هذا فى يوم من الأيام الى يديه وكان فى وسعه أن يبطش به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرا من أعنف أنصاره . .

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه فى رأيه ، أو لأنه اعتقد أن الحق بين وأن الباطل بين فلا حاجة به بعد التمييز بينهما الى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه فى الخلافة قائم على شىء واحد وهو اقبال الناس اليه طائعين ومبايعتهم اياه مختارين . فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفا فى اليقين، فالرأى عنده أن يكتب الى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا اليه

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها
بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ..

لم يكن الصراع بين علي ومعاوية على هذا الوضوح الذي
لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة ..
لكنه في بيعة الحسين كان قد وضح وضح الصبح لدى
عينين

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد الفداء
في سبيل العقيدة والإيمان .. بعد العهد الذي كان الرجل
فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه
وأخيه وبنيه إن خالفوه في أمر الإسلام .. بعد العهد الذي
كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين
وفي أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعقل والأزواد
.. بعد العهد الذي تغير فيه الناس ، وخيل إلى من كان
يعملهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخدل الحسين وينتصر يزيد في عالم شهد النبوة
وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ إن كلمة واحدة قالها
الحسين في ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق
وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال :
« الناس عبيد الدنيا » . والدين لعق على أسنتهم يحوطونه
ما درت به معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون «
إن الطبائع الأرضية لا تنخدع في صلاح الناس ولا

تعجب هذا العجب .. ! لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود
ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود !

انها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من
طريق ، انها تؤثر القنديل الخافت في يدها على الكوكب
اللامع في السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع في السماء،
بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن
ذاك جد بعيد

انها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها
ولا تشعر بظم الفؤاد ولا تنظر الى السراب

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع
والشراء ..

طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات
وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة
وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ
المساومين

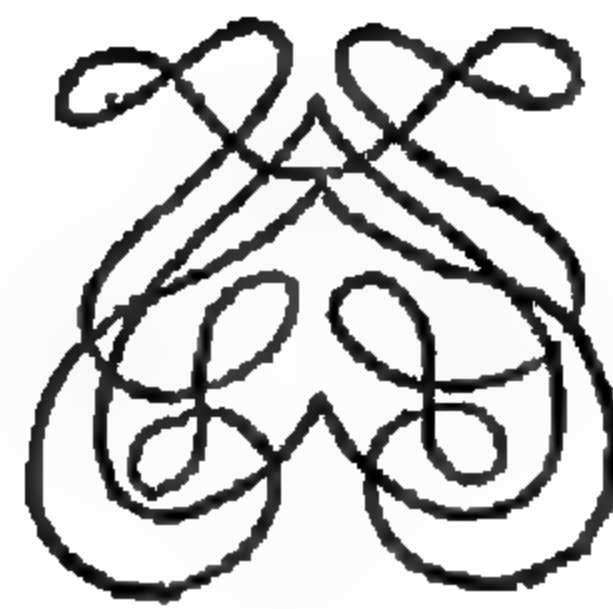
وليست موازين المساومة بالموازين الفذة التي يصلح
عليها أمر بنى الانسان . فان بنى الانسان ما بهم من غنى قط
عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وأنهم لهم
الشهداء

وأنهم لعل صواب في المدى البعيد ، وان كانوا على خطأ
في المدى القريب .. مدى الأجواف والمعدلات والجلود
لا مدى الأرواح والأخلاق ..

من هؤلاء كان الحسين رضى الله عنه ، بل هو أبو الشهداء

وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر
أجمعين

فلا جرم يصيب فى المدى البعيد ويخطئ فى المدى
القريب . . مدى المنفعة التى تناله هو فى معيشة يومه ،
وهو المدى الذى لا يأسف عليه ولا ينص الركاب اليه



کربلاء

الحرم المقدس

عرفت قديما باسم « كور بابل » ثم صحفت الى كربلاء ،
فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين
الكرب والبلاء ، كما وسمها بعض الشعراء

ولم يكن لها ما تذكر به في أقرب جيرة لها فضلا عن أرجاء
الدنيا البعيدة منها . . فليس لها من موقعها ولا من تربتها
ولا من حوادثها ، ما يغري أحدا برؤيتها ثم يثبت في ذاكرة
من يراها ساعة يرحل عنها

فلعل الزمن كان خليقا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرا
بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود . .
الا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل في زمرة تلك الجيرة
بغير حساب

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق اليها ركب
الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن
تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله . ومن حقه أن
يقترن بتاريخ بنى الانسان حيثما عرفت لهذا الانسان
فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد

فهى اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ،
ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت

حقها من التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارا لكل آدمي يعرف لبنى نوعه نصيبا من القداسة وحظا من الفضيلة . لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الارض يقترون اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التي اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التي بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم . .
فهى مقرونة فى الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه فى تلك البقعة الجرداء

وليس فى نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الايمان والفداء والايتار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد فى المحنة والأنفة من الضمير والشجاعة فى وجه الموت المحتوم . . وهى - ومثيلات لها من طرازها - هى التى تجلت فى حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط فى موطن من المواطن تجليها فى تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون فى جانب منها أشرف ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها فى الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات وحسبك من تقويم الأخلاق فى تلك النفوس ، أنه ما من أحد قتل فى كربلاء الا كان فى وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة ، ولكنهم جميعا آثروا الموت عطاشا جياعا مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطروا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة . .

أو حسبك من تقويم الأخلاق في نفس قائدها وقودتها
أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم ، ولن يبتعث المرء روح
الاستشهاد فيمن يلزمه إلا أن يكون هو أهلا للاستشهاد
في سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون في سليقة الشهيد
الذي يأتى به الشهداء

نموت معك

أقبل الفتى الصغير على بن الحسين على أبيه . . . وقد علم
أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

— ألسنا على الحق ؟

قال الوالد المنجب النجيب :

— بلى والذي يرجع إليه العباد

فقال الفتى :

— يا أبة ! فاذن لا نبالي !

وهكذا كانوا جميعا لا يبالون ما يلقون ، ما علموا أنهم
قائمون بالحق وعليه يموتون

وأراد الحسين — وقد علم أن التسليم لا يكون — أن يبقى
للموت وحده وألا يعرض أحدا من صحبه . فجمعهم مرة
بعد مرة وهو يقول لهم في كل مرة : « لقد بررتم وعاونتم
والقوم لا يريدون غيري . ولو قتلوني لم يبتغوا غيري أحدا .
. . فاذا جنكم الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم »

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا
من رجائهم إياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثببات

والبقاء • وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد: « معاذ الله والشهر الحرام •• ماذا نقول للناس إذا رجعنا اليهم ؟ أنقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضاً للنبل ودريئة للرماح وجزراً للسباع ، وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله •• بل نحيا بحياتك ونموت معك •• »

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدو عن رأيه ايثارا لنجاتهم ونجاته • ولو خادعوا أنفسهم قليلا لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعا على ذلك

ولم يكونوا جميعا من ذوى عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولا أنفسهم هذه النصيحة التي ترهب العار ولا ترهب الموت • فقال له زهير بن القين : « والله لو ددت اني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك الفشل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك »

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلي عنك ؟ وبم نعتذر الى الله في أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة • والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك • وأما والله لو علمت أنني

أقتل ثم أحيى ثم أحرق ثم أحيى ثم أحرق ثم أذرى ويفعل
بى ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامى دونك . . »
وجىء الى رجل من أصحابه الغرباء نبأ عن ابنه فى فتنة
الديلم ، فعلم أن الديلم أسروه ولا يفكون أساره بغير فداء ،
فأذن له الحسين أن يتصرف وهو فى حل من بيعته ويعطيه
فداء ابنه . فأبى الرجل أباء شديدا ، وقال : « عند الله
احتسبه ونفسى » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك
ثم أسأل الركبان عن خبرك . . لا يكن والله هذا أبدا »

وقد تناهت هذه المناقب الى مداها الأعلى فى نفس قائدهم
الكريم . . يخيّل الى الناظر فى أعماله بكر بلاء أن خلائقه
الشريفة كانت فى سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم كله ،
فلا يدرى أكان فى شجاعته أشجع ، أم فى صبره أصبر ،
أم فى كرمه أكرم ، أم فى إيمانه وأنفته وغيخته على الحق
بالغا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه . إلا أنه كان يوم
الشجاعة لا وراء ، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التى
تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها .
فكان الحسين - شبل على - فى شجاعته الروحية والبدنية
معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من
أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء

ملك جأشه . . وكل شىء من حوله يوهن الجأش ، ويحل
عقدة العزم ، ويغرى بالدعة والمجاراة . .

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه فى نضارة العمر
يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه
روية وأناة ولم يملكه وثبة واثب الى الغضب أو هيجة
محتاج الى الوغى ، فكان قبل القتال وفى حومة القتال قويا

بصيرا ينفض الضعف عن عزائمه ، كما ينفض الأسد
غبرات الحصباء عن لبدته ، ولم يخامره الأسف قط في ذلك
الموقف المرهوب الا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم
ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه ، فقال وهو ينظر الى
الأخبية ومن فيها : « لله در ابن عباس فيما أشار به على ! »
وجلس ليلة القتال في خيمته يعالج سهامها له بين يديه
ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يا دهر أف لك من خليل ، كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتييل والدهر لا يقنع بالبديل
والأمر في ذاك الى الجليل وكل حى سالك سبيل
فرد ابنه عبرته لكيلا يزيد ألمه على ألمه . وسمعتة أخته
زينب ، فلم تقو على حنانها ووجلها ، زخرجت اليه من
خبائها حاسرة تنادى : « واثكلاه . . اليوم مات جدى
رسول الله وأمى فاطمة الزهراء وأبى على وأخى الحسن . .
فليت الموت أعدمنى الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين
وثمالة الباقين ! »

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذى بات عليه ،
وقال لها :

— يا أخت ! لو ترك القطا لنام . . ولم يزل يناشدها . .
ويعزيها وهو فى قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة
الموت وإباء التسليم أو النزول على « حكم ابن مرجانة » كما
قال . . ثم احتملها مغشيا عليها حتى أدخلها الحباء

نزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب
وتحضر المطالب أو تغيب ، وهذه الحلائق العلوية فى صدر

الانسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته ، ومن الدول
وما حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسى الأرض
وكواكب السماء

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك
تلك الفئة الكبيرة التى تناقضها أتم ما يكون التناقض بين
طرفين ، وتباعدها أبعد ما تكون المسافة بين قطبين • فكل
ما فيها أرضى مظلم مسف بالغ فى الاسفاف ، وليس فيها
من النفحة العلوية نصيب

ألمصادفات نظام وتدير ٠٠ ؟ !

نحن لا نعلم الا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينها من
الوشائج والصلات •• ولكنها - لذلك - هى الأعاجيب
التي تستوقف النظر لعجيبها العاجب ، وان لم تستوقفه لما
يفهمه فيها من نظام وتدير

فجيرة كربلاء كانت قديما من معاهد الايمان بحرب النور
والظلام ، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين
أورمزد واهرمان ، ولكنه كان فى حقيقته ضربا من المجاز
وفنا من الخيال

وتشاء مصادفات التاريخ الا أن ترى هذه البقاع التى آمنت
بأورمزد واهرمان حربا هى أولى أن تسمى حرب النور
والظلام من حرب الحسين ومقاتليه ••

وهى عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الاسلام

والمجوسية فى تلك البقاع وما وراءها من الارض الفارسية
لأن المجوسى كان يدافع شنيئا ينكره ، ففى دفاعه معنى
من الايمان بالواجب كما تخيله وراه ، ولكن الجيش الذى
أرسله عبید الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشا يحارب
قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه • اذ لم يكن
فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق
يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفج عن عقيدة غير عقيدة
الاسلام ، الا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه ،
ولا نخالهم كثيرين

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة
الذفاق ومسبة الأخلق • • فعداوتهم ما علموا أنه الحق
وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله
بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم
يعلمون • •

ومن ثم كانوا فى موقفهم ذاك ظلما مطبقا • ليس فيه من
شعور الواجب بصيص واحد من عالم النور والفداء • •
فكانوا حقا فى يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة
من عالم النور

أقربهم الى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرهبة لأنهم
أكرهوه بالسيف على غير ما يريد • • فكان الجبن أشرف
ما فيهم من خصال السوء • •

وكان منهم أناس كتبوا الى الحسين يستدعونه الى الكوفة
ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما نديهم عمر بن سعد للقاءه
وسؤاله أحجموا عما نديهم له واستعفوه ، لأن جوابهم ان

سألوه فى شأن مجيئه اليهم : اننى جئتكم ملبيا ما دعوتكم اليه !

وركب أناسا منهم الفرع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيما اقترفوه عرفانا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بنى أبان بن دارم كان يقول :

- قتلت شابا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود . .
فما نمت ليلة منذ قتلته الا أتانى فيأخذ بتلابيبى حتى يأتى جهنم فيندفعنى فيها ، فأصبح فما يبقى أحد فى الحى الا سمع صياحى

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه واسود لونه ، فقال له : « ما كدت أعرفك » . وكان يعرفه جميلا شديد البياض . .

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين فى المعمة ، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربا بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم اياه . فاذا هم يحاربون رأيهم الذى يدينون به ، ووليهم الذى يضمرون له الحرمة والكرامة ، وفى ذلك خزيهم الاثم



على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم فى أيام كربلاء . .

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع الى التمثيل والتنكيل أو

التبرع بالأيذاء حيث لا تلجئه الضرورة اليه ، وليس قتل
الطفل الصغير الذى يموت من العطش وهو على مورد الماء
بالأمر الذى يلجئ اليه الجبن أو يلجئ اليه طلب المال ،
وقد حدث فى أيام كربلاء من أمثال هذا البغى اللثيم شئ
كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين
والطالبين أو أعداء بنى أمية !

وينبغى أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل الى فهمه
بغيره ، وهو نكسة الشر فى النفس البشرية ، حين تلج بها
مغالطة الشعور وحين تغالب عنانها حتى تعيها المغالبة
فينطلق بها العنان

فالرجل الخبيث المعرق فى الخباثة قد يتصرف فى خلوته
تصرف الأندال ثم لا يبالي أن يعرف نذالته وهو بنجوة من
أعين الرقباء • ولكن أربعة الآلاف لا يتصارعون بالنذالة
بينهم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون
به التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علة • وانما
شأنهم فى هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد
ما استطاعوا ، ليظهروا فى ثوب الغلالة المصدقين الذين
لا يشكون لحظة فى صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم
عينيه ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع
نفسه عن طوية فؤاده ••

وتلك لاجبة المغالطة فى الشعور ••

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة
المخففة ، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم ••
يحاول الرجل أن يجتنب الخمر فلا يستطيع ، فاذا هو قد

خلع العذار وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء »

وتحب المرأة أن تستحيى وتتوارى من المسبة فى هواها، ثم يغلبها هواها فاذا هى قد ألفت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التى لم تنازع نفسها قط فى هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار

واندفاع المتهجمين على الشرف فى حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا ضرورة ملزمة تقضى بها شريعة القتال ، لهو الاندفاع الذى يسبر لنا عمق الشعور بالاثم فى نفوس أصحاب يزيد . وقد رأينا من قبل عمق الشعور بالحق فى أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه العلة لأن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحق والايذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان ، كشمس بن ذى الجوشن ، ومن جرى مجراه . . فهؤلاء لا يصنعون غير منيعهم الاثيم كلما وجدوا السبيل اليه

على أنها - بعد كل هذا - حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام . . فشأنها على أية حال أن تصبح مجالا من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت فى ذلك أقصى مدى الطرفين

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمناجزة ، أن نتقضى أوائل القتال ونتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها . . فان الاقوال فى سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كان

هذا الترتيب فى رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد
الا أن الترتيب الطبيعى يستبين للعقل من سبب الوقوف
فى ذلك المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله
وأن يرد الماء حتى يكرهه العطش الى التسليم، وكان الموقف
كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون :

منع الفتى هينا فجر عظاما وحمى نمر الماء فانبعث الدم
ولم يمتنع طريق الماء فى بادىء الأمر دفعة واحدة لأن
حراس المورد من جماعة عمر بن سعد لم يكونوا على جزم
بما يصنعون فى مواجهة الحسين وصحبه . فلما اندفع
بعض أصحاب الحسين الى الماء بالقرب والأداوى ، مانعهم
القوم هنيهة ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفا وحيرة، فشربوا
وملؤا قربهم وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء الى حين

والظاهر أن الشر كله كان فى حضور شمر بن ذى الجوشن
على تلك الساحة ، متربصا كل التربص بمن يتوانى فى
حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ثم
يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وامارة الرى بعد
عزل عمر بن سعد بن أبى وقاص . فبطل التردد شيئا
فشيئا ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى
أن يصلوا الى الماء . ولبثوا أياما وليس فى معسكرهم ذو
حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان الا وهو يتلظى
على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ
المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة
الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم
غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة

وفى ذلك المأزق الفاجع نضحت طبائع اللؤم فى معسكر
ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لثيمة فى البنية الآدمية
.. فاقترفوا من خسة الأذى ما تنزّه عنه الوحوش
الضاريات، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود
وتندى له الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفا
وامتعاضا لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة،
وبيان لما يلي من وقعها فى النفوس وتسلسل تراتها الى أمد
بعيد

ماآثم مخزية

فمن هذه المآآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم
يباله .. ولكنه رأى ولده عبد الله يلتوى من ألمه وعطشه
وقد بح صوته من البكاء، فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول
للقوم : « اتقوا الله فى الطفل ان لم تتقوا الله فينا » فأوتر
رجل من نبالة الكوفة قوسه ، ورمى الطفل بسهم وهو
يصيح ليسمعه العسكران : « خذ اسقه هذا » .. فنفذ
السهم الى أحشائه !

وكانوا يصيحون بالحسين متهاةفين : « ألا ترى الى الفرات
كأنه بطون الحيات ؟ ! .. والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك
عطشا »

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرمى
حصين بن نمير بسهم وقع فى فمه .. فانتزعه الحسنة
وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلاّت راحته بالدم ، فرمى به
الى السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول : « ان تكن

عجبت عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ،
وانتقم لنا من القوم الظالمين ! »

وقد كان منع الماء - قبل الترامى بالسهم - نذيرا كافيا
بالحرب ، يبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة
.. ولكنه رأى شمر بن ذى الجوشن - أبغض مبغضيه المؤلبيين
عليه - يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم
عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن يرميه بسهم
وقد أمكنه أن يصميه وهو من أسد الرماة .. لأنه كره أن
يبدأهم بعداء

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة فى الدفاع
عن مولاهم ، وعلم أنهم لا يخلصون فى جبهه ولا يؤمنون بحقه
وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة
.. فطمع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى
بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمى بسهم واحد من
سهام القتال . فخرج لهم يوما بزي جده عليه السلام متقلدا
سيفه لابسا عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان
أول ما صنعوه دليلا على صدق فراسته فيهم ، لائن رؤساءهم
ومؤلبيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ الى قلوبهم
ويلمس مواقع الاقناع من ألبابهم . فضجوا بالصياح والجلبة
وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم
ويتقوا أثر موعظته فيهم ، وهر بتلك الهيئة التى تغضى
عنها الأبصار وتعنو لها الجباه

ولكنه صابرهم حتى ملوا ومل اخوانهم ضجيجهم هذا
الذى يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ، ولا يوجب الثقة

بدعواهم عند اخوانهم .. فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعد
الحمد والصلاة : « انسيبوني من أنا .. هل يحل لكم قتلي
وانتهاك حرمتي ؟ ألسنت ابن بنت نبيكم ؟ .. أو لم يبلغكم
ما قاله رسول الله لي ولاخي : هذان سيدا شباب أهل الجنة؟
ويحكم! .. أتطلبونني بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته؟ »

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم
خرجوا لحربه في جيش ابن زياد . فقال : « يا شيث بن
الربيعي ! يا حجار بن أبهر ! يا قيس بن الأشعث ! يا يزيد
ابن الحارث ! يا عمر بن الحجاج ! .. ألم تكتبوا الى أن قد أينعت
الثمار واخضرت الجنبات ، وانما تقدم على جند لك مجند ؟ »

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها
المقنع ممن فيه مطمع لا قناع ، وتحولت الى صفة فئة منهم
تعلم انها تتحول الى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ،
واستطابت هذا الموت ولم تستطع البقاء مع ابن زياد لا غتنام
الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال .

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح
الدعوة قبل الاحتكام الى السيف .. فقد كانت للبطل المجيد
زهير بن القين كلمات في أهل الكوفة أمضى من السيوف
والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه وتعرض لهم قائلاً :
« يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار .. ان حقا
على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن اخوة على دين
واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف
انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وأنتم أمة .. ان الله قد
ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينظر

ما نحن وأنتم عاملون، وانا ندعوكم إلى نصر حسين وخذلان
الطاغية بن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فانكم لا تدركون
منهما الا سوءا : يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم
ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أمثالكم
وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه وهانىء بن عروة
وأشباهه »

فوجم منهم من وجم وتوقع منهم من توقع على ديدن المريب
المكابر اذا خلع العذار ولم يأنف من العار، وتوعدوه وتوعدوا
الحسين معه أن يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين الى عبيد الله
ابن زياد

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين الى
معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين • ولكن بداءة
التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد
كبير من قواد ابن زياد وهو الحر بن يزيد الذى أرسلوه فى
أول الأمر ليحلىء الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان
يحسب أن عمله ينتهى الى هذه المراقبة ولا يعبدوها الى
القتال وسفك الدم • فلما تبين نية القتال أقبل يدنو نحو
عسكر الحسين قليلا قليلا وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد
•• حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس فقال له :

— والله ان أمرك لمريب •• ما رأيت منك قط مثل ما أراه
الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك
فباح له الرجل بما فى نفسه وقال له :

« انى أخير نفسى بين الجنة والنار ولا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت أو حرقت » * ثم ضرب فرسه ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلاً :

— لو علمت أنهم ينتهون الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وانى قد جئتكم تائباً مما كان منى الى ربى ، مؤاسياً لك بنفسى حتى أموت بين يديك !

وان يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحمر بن يزيد يؤمنون ايماناً ويودون لو يلحقون به الى معسكر الحسين ، ويزعمهم أن يتحول أمامهم الى ذلك المعسكر وهم ناظرون اليه ، لأنه يبكثهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضرهم على الاقتداء به والتدبر فى أسباب ندمه ، لا لأنه ينقص عددهم أو ينذر بالهزيمة فى ميدان القتال . . فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره ويعتقد فى فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ، وبعيد على العقل أن يصدق فى هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدباً يغلب شعور الجماعة وايمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوى ، ويهون عليه قتل بسبب النبى فى هذا السبيل ، وكيف وأن منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه اليه ليقود « الجند المجند » الى قتال يزيد ؟ فكلهم فى البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بالسنتهم ولا يستر ما فى طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج فى مكانه وحركته القدوة التى يريدونها ولا يقوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقاً وأشدّهما حيرة وأعجلهما

الى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين
وأقوى العسكريين

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكريان أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق ، ولكنه كان مطمئنا الى حقه يلقي الموت في سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة الى هذا المصير ..
والعسكر الآخر أكبر العسكريين ولكنه كان « يخون » نفسه في ضمير كل فرد من أفراد ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيث ومغالطة واضطراب ، يحز في الأعباب ويقذف بالمرء الى الخلاص كيفما كان الخلاص وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهمها في الفضاء كأنه كان متشبثا بصدرة فاستراح منه بانطلاقه ..
فزحف الى مقربة من معسكر الحسين، وتناول سهمها فرماه عن قوسه الى المعسكر وهو يصيح :

— اشهدوا لي عند الأمير اننى أول من رمى الحسين ..
ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل فى نية القوم ، وقام الحسين وهو ينظر الى السهام وينظر الى أصحابه فقال :

— قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم ..
وبذلك بدأ القتال ..

وقد تاهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وان كان على انتظاره اياها قد تريت حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبا لا خلاف فيه ..
فاختار له رابية يحتمى بها من ورائه ، ووسع وهدتها

حتى أصبحت خندقا لا يسهل عبوره . . فأوقد فيه النار
ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم في كثرتهم التي
ترجح عدة صحبه ستين ضعفا قادرون على مهاجمته من
جميع نواحيه .

وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا . . وهم
نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الابل
ويحملون صنوفا مختلفة من السلاح . .

ومع هذا التفاوت البعيد في عدد الفريقين ، كان العسكر
القليل كفؤا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سبنة المبارزة
التي كانت دعوة مجابة في ذلك العصر ، اذا اختارها أحد
الفريقين . .

فان آل على جميعا كانوا من أشهر العرب - بل من أشهر
العرب والعجم - بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع
بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوى
الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذي صرع
جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم في زمانه ، ومن
أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان في أرض الروم يفخر به
أهلها . . فأرسله ملكهم الى معاوية يعجز به العرب عن
مصارعته واتقاء بأسه . فجلس محمد بن الحنفية وطلب من
ذلك الجبار الرومي أن يقيمه ، فكان كأنما يحرك جبلا لصلابة
أعضائه وشدة أسره . فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد
فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات

والحسين رضي الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب
آل على ممن ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش

وحمية الفؤاد ، وكانوا كفوًا لمبارزة الأنداد واحدا بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة . ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون في منازلة الشجعان ، كما تتبدد السائمة المذعورة بالعراء

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم له شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمي ، بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرًا لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين في مثل تلك الرحلة هي وحدها آية على الشجاعة في ملاقات الموت وكرم النحيضة في ملاقات الفتنة والاعراء . فاذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم في الغلب بضعيف

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها . فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها .

فعدل الفريقان إلى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد إلا فشل أو نكص على عقبية ، فخشى رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التي لا أمل لهم في الغلبة بها ، وصاح عمر بن الحجاج برفاقه :

— أتدرون من تقاتلون ؟ تقاتلون فرسان مصر وقوما مستميتين . لا يبرز إليهم منكم أحد فانهم قليل . لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم

فاستصوب عمر بن سعد مقالته ، ونهى الناس عن المبارزة
فلما برز عابس بن أبى شبيب الشاكرى بعد ذلك
وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيدا منه .
فقال لهم عمر :

— ارموه بالحجارة —

فرموه من كل جانب . . فاستمات وألقى بدرعه ومغفره
وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات
وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ،
وهي تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل . . فبعث عروة
ابن قيس مقدم الفرسان فى جيش ابن زياد يقول لعمر بن
سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة
اليسيرة ؟ ابعث اليهم الرجال والرماة » فبعث اليه
بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحصين بن نمير ، فرشقوا
أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان
والرجال

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندى ممن عدل الى
جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم
رمى النبال والسهم ، جثا بين يدي الحسين وأرسل مائة
سهم لم يكذب منها خمسة أسهم . . وقاتل حتى مات
وكان الذين عدلوا الى عسكر الحسين أشد أنصاره عزيمة
فى القتال وهجمة على الموت ، ومنهم الحر بن يزيد الكندى
تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين
بالكف عن حرب الحسين أو بالعدول الى صفة . . وقام على
فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم

رشقوه بالنبل فعمقروا فرسه وجرحوه . . فما زال يطلب الموت ويتحري من صفوفهم أكثفها جمعا وأقتلها نبلا حتى سقط مثخنا بالجراح وهو ينادى الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله »

ولم يكن من أصحاب الحسين إلا من يطلب الموت ويتحري مواقعه وأهدافه . . فكان نافع بن هلال البجلي يكتب اسمه على أفواق نبلة ويرسلها فيقتل بها ويجرح ، وقلما يخطيء مرماه . فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ، فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم فيقول لهم : « لقد قتلت منكم اثني عشر رجلا سوى من جرحت ، ولو بقيت لي عضد وساعد لزدت »

مصرع الحسين

واستهدف الحسين رضى الله عنه لا أقواس القوم وسيوفهم ، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون إلا بين يديه . وكلما سقط منهم صريع ، أسرع الى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخبية التي أوى اليها النساء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخذوا فى إحراقها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضى الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم بصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

- دعوهم يجرقونها .. فانهم اذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه في تلك المحنة المتراكبة التي تعصف بالصبر وتطيش بالألباب .. وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به الا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء . فانه رضى الله عنه كان يقاسى جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقى باله الى حركات القوم ومكائدهم ، ويدبر لرهطه ما يحبطون بك تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم .. ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم . ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعراء حمله الى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون في حشجة الصدور ما هم فيه .. فيطلبون الماء ويحز طلبهم في قلبه كما أعياه الجواب ، ويرجع الى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ويعرض به عن الحياة .. ويقول في أثر كل صريع : « لا خير في العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه ..

وانه لفي هذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب .. اذا بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب، واذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين الى الاطفال والصبيان من عترته وآل بيته ، ويسقط كل من معه واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضون دونه ويتلقون الضرب عنه، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجر بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير

وكان غلام من آل الحسين - هو عبد الله بن الحسن أخيه -
ينظر من الأخبية ، فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيبه
حين أخطأ زميله ، فهرول الغلام الى عمه وصاح فى براءته
بالرجل :

- يا ابن الخبيثة .. أقتل عمى ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربته
بيده فانقطعت وتعلقت بجلبدها .. فاعتنقه عمه وجعل
يواسيه وهو مشغول بدفاع من يليه

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال
تلك الزحوف المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن
يمينه فيتفرقون ، ويشد على الخيل راجلا ويشق الصفوف
وحيدا ، ويهايه القريبون فيبتعدون ، ويهم المتقدمون
بالاجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تخرجوا من قتله ،
وأحب كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن
ذى الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ،
وصاح بمن حوله :

- ويحكم ! .. ماذا تنتظرون بالرجل ؟ أقتلوه ثكلتكم
أمهاتكم ..

فاندفعوا اليه تحت عيني شمر مخافة من وشايته وعقابه
.. وضربه زرعة بن شريك التميمي على يده اليسرى
فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه ، ثم جعل
يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى
سكن حراكه ، ووجدت به بعد موته رضوان الله عليه ثلاث
وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير إصابة النبل

والسهم، وأحصاها بعضهم في ثيابه فاذا هي مائة وعشرون
ونزل خولى بن يزيد الاصبحى ليحتز رأسه فملكته رعدة
في يديه وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له :

ـ فت الله في عضدك !

واحتز الرأس وأبى الا أن يسلمه اليه في رعدته ، سخريه
به وتماديا في الشر ، وتحديا به لمن عسى أن ينعاه عليه !
وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله
وصفا لا يطرقة الشك والاثهام ، فكان ضغنه هذا كله ضغنا
لا معني له ولا باعث اليه الا أنه من أولئك الذين يخزيهم
اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلوا به الكرام ، ويجعلوه
تحديا مكشوبا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون
أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولكنهم يبلغون به مأربهم اذا
آلوا به من يحس فيهم الضعة والعار

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..

وبقيت وهدة من الحسة ينحدر اليها منحدرون كثيرون

فلم يكن في عسكر الحسين كله الا رmq واحد من الحياة
باق في رجل طعين مثخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه
لظنهم أنه قد مات ..

ذلك الرجل الكريم هو سنويد بن أبى المطاع أصدق
الانصار وأنبل الابطال ..

فأبى الله لهذا الرmq الضعيف أن يفارق الدنيا بغدير
مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس
الكثيرات فاذا هي حسبها من شرف ومجد وثناء

تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذى
أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له
أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحم الحتام ، ولم يخطر
له أنه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم
أهون منال ، ولم يحسب حساب شيء فى تلك اللحظة
العصيبة الا أن يجاهد فى القوم بما استطاع ، بالغابا بلغ
من ضعف هذا المستطاع "

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر الى شيء يجاهد
به فلم تقع يده الا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف
والرماح . . ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب
على قدميه من بين الموتى وثبة المستيثس الذى لا يفر من شيء
ولا يبالي من يصيب وما يصاب . فتولاهم الذعر وشملت
أيديهم التى كانت خليقة أن تمتد اليه ، وانطلق هو يثخن
فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم
بضجعتهم وغيبتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله
رجالان . . فكان هذا حقا هو الكرم والمجد فى عسكر الحسين
الى الرمق الاخير

خصة ووحشية

وكان حقا لا مجازا ما توخيناه حين قلنا أنهم طرغان
متناقضان ، وأنها حرب بين أشرف ما فى الانسان وأوضع
ما فى الانسان

فبينما كان الرجل فى عسكر الحسين ينهض من بين الموتى
ولا يضمن بالرمق الاخير فى سبيل ايمانه ، اذا بالآخرين
يقترفون أسوأ المآثم فى رأيهم - قبل رأى غيرهم - من أجل

غنيمة هينة لا تسمن ولا تغنى من جوع • فلو كان كل ما فى عسكر الحسين ذهباً ودرا لما أغنى عنهم شيئاً وهم قرابة أربعة آلاف • • ولكنهم ، ما استيقنوا بالعاقبة - قبل أن يسلم الحسين نفسه الاخير - حتى كان همهم الى الاسلاب يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا الى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلى والثياب التى على أجسادهن ، لا يزعهم عن حرمان رسول الله وازع من دين أو مروءة • وانقلبوا الى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها • ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الحيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره

وقد يساق الغنم هنا معذرة للآثم بالغاً ما بلغ هذا من العظم ، وبالغا ما بلغ ذاك من التفاهة • لكنهم فى الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع فى مغنم كبير أو صغير • فحرموا الرى على الطفل الظامى العليل وأرسلوا الى أحشائه السهام بديلاً من الماء ، وقتلوا من لا غرض فى قتله وروعوا من لا مكرمة فى ترويعه • • فربما خرج الطفل من الاخبية ناظراً وجلاً لا يفقه ما يجرى حوله ، فينقض عليه الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمراى من الأم والاخت والعمة والقريبة ، ولم تكن فى الذى حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائم كربلاء • فقد قتل فعلاً فى كربلاء كل كبير وصغير من سلالة على رضى الله عنه ، ولم ينبج من

ذكورهم غير الصبى على زين العابدين .. وفى ذلك يقول
سراقة الباهلى :

عين جودى بعبسة وعويل واندبى ماندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب على قد أبيدوا وسبعة لعقيل
وما نجا على زين العابدين الا بأعجوبة من أعاجيب المقادير ،
لأنه كان مريضا على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة
اليوم أو غد . فلما هم شمر بن ذى الجوشن بقتله ، نهاه
عمر بن سعد عنه اما حياء من قرابة الرحم أمام النساء -
وقد كان له نسب يجتمع به فى عبد مناف - واما توقعا
لموته من السقم المضمن الذى كان يعانيه .. فنجا بهذه
الاعجوبة فى لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ،
ولولا ذلك لباد

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا
الجثث ملقاة على الارض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما
صلوا على جثث قتلاهم .. ومروا بالنساء حواسر من
طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضى الله عنها :

- يا محمداه ! .. هذا الحسين بالعراء وبناتك سنبايا
وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم .. فبكى
العدو كما بكى الصديق !

لم تنقضى فى ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبى
محمد عليه السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد
الذى بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم
من الظلمة الى النور ، ومن حياة التية فى الصحراء الى حياة

عامرة يسودون بها أمم العالمين • ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، واذا هم في موكب جهير يجوب الصحراء الى مدينة بعد مدينة : سبايا بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفى عليها الصبا » فخرج لها مع الليل جماعة من بنى أسد كانوا ينزلون بتلك الانحاء • • فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء الى حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله - شرفا ولا وحشة - فى الآباد بعد الآباد

وكان يوم المقتل فى العاشر من المحرم • • فكان القمر فى تلك الليلة على وشك التمام • فحفروا القبور على ضوئه وصلوا على الجثث ودفنوها ثم غادروها هناك فى ذمة التاريخ • فهى اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسان ، لأنه عنوان قائم لا أقدر ما يشرف به هذا الحى الآدمى بين سائر الاحياء

فما أظلت قبة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء

جريرة كربلاء

موطن الرأس

اتفقت الأقوال في تدفن جسد الحسين عليه السلام ،
وتعددت أيما تعدد في موطن الرأس الشريف . .
فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة إلى كربلاء فدفن مع
الجسد فيها . .

ومنها أنه أرسل إلى عمرو بن سعيد بن العاص وإلى يزيد
على المدينة ، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء . .
ومنها أنه وجد بخزانة يزيد بن معاوية بعد موته، فدفن
بدمشق عند باب الفرديس . .

ومنها أنه كان قد طيف به في البلاد حتى وصل إلى
عسقلان ، فدفنه أميرها هناك وبقي بها حتى استولى عليها
الافرنج في الحروب الصليبية . . فبذل لهم الصالح طلائع
وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله إلى
القاهرة حيث دفن بمشهد المشهور . قال الشعرائي في
طبقات الأولياء : « ان الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج
هو وعسكره حنما إلى الصالحية ، فتلقى الرأس الشريف
ووضعه في كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الابنوس
وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن في المشهد
الحسيني قريبا من خان الخليل في القبر المعروف »

وقال السائح الهروى فى الاشارات الى أماكن الزيارات :
« وبها - أى عسقلان - مشهد الحسين رضى الله عنه : كان
رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون الى مدينة
القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة »

وفى رحلة ابن بطوطه أنه سافر الى عسقلان « وبه
المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام ،
قبل أن ينقل الى القاهرة »

وذكر سبط بن الجوزى فيما ذكر من الأقوال المتعددة
أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات، وأنه لما جىء به بين يدى
يزيد بن معاوية قال : « لأبعثنه الى آل أبى معيط عن رأس
عثمان » وكانوا بالرقة • فدفنوه فى بعض دورهم ثم دخلت
تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو الى جانب سورته هناك

فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ستة فى ست مدن
هى : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ،
والقاهرة • وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام
وبيت المقدس والديار المصرية • وتكاد تشتمل على مداخل
العالم الاسلامى كله من وراء تلك الاقطار ، فان لم تكن هى
الاماكن التى دفن فيها رأس الحسين فهى الاماكن التى تحيا
بها ذكراه لا مرأه

وللتاريخ اختلافات كثيرة نسميها بالاختلافات اللفظية
أو العرضية ، لان نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع
الأقوال • ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه
السلام • فإيا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف ،
فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف • وانما أصبح
الحسين - بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة

النبوية - معنى يحضره الرجل في صدره وهو قسريب أو بعيد من قبره . وان هذا المعنى لفي القاهرة ، وفي عسقلان ، وفي دمشق ، وفي الرقة ، وفي كربلاء ، وفي المدينة ، وفي غير تلك الاماكن سواء

وقاحة بن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد . .

فالمتواتر الموافق لسيرالأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء الى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها في أحياء الكوفة ثم ترسل الى يزيد

وكانت فعلة يدارونها بالتسوق فيها على سنة المأخوذ الذي لا يملك مدارة ما فعل . فبات خولى بن يزيد ليلته بالرأس في بيته ، وهو يمني نفسه بغنى الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله »

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله ، فرآه ينكث ثنايا الرأس حين وضع أمامه في أجانة . فصاح به مغضبا :

- ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين . . فوالذي لا اله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما ، وبكى . .

فهزى به ابن زياد وقال له :

- لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، لضربت عنقك! فخرج زيد وهو ينادي في الناس غير حافل بشيء :

— أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وأثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم

وأدخلت السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين واماؤها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما أمامها . فسأل ابن زياد :

— من هذه التي انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجيبه .. فأعاد سؤاله ثلاثا وهي لا تجيبه ، ثم أجابت عنها احدى الاماء :

— هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاجترأ ابن زياد قائلا :

— الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأبطل أعدوئكم ..

وقد كانت زينب رضي الله عنها حقا جسيمة بنسبها الشريف في تلك الرحلة الفاجعة التي تهد عزائم الرجال .. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت علي وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعته وتضحيتها بقية العقب الحسيني من الذكور .. ولولاها لانقرض من يوم كربلاء

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :

— الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه وظهرنا من الرجس تطهيرا .. انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله

فقال ابن زياد :

— قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة
فغلبها الحزن والغیظ من هذا التشفى الذى لا ناصر لها
منه ، وقالت :

— لقد قتلت كهلى ، وأبدت أهلى ، وقطعت فرعى واجتثت
أصلی ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت
فتهاثف ابن زياد ساخرا وقال :

— هذه سجاعة .. لعمرى لقد كان أبوها سجاعا شاعرا
فقلت زينب :

— ان لى عن السجاعة لشغلا .. ما للمرأة والسجاعة ؟

على زين العابدين

ثم نظر ابن زياد الى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب
فسأله :

— من أنت ؟

قال : على بن الحسين

قال : أو لم يقتل الله على بن الحسين ؟

قال : كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله

فقال على : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان

لنفس أن تموت الا باذن الله

فأخذت زيادا عزة الائم وانتهره قائلا :

— وبك جرأة لجوابى !

وصاح الحبيث الاثيم بجنده :

— اذهبوا به فاضربوا عنقه

فجاشت بعمة الغلام قوة لا يردّها سلطان ولا يرهبها سلاح .. لانها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة، فاعتنقت الغلام اعتناق من اعتزم ألا يفارقه الا وهو جثة هامة ، وأقسمت لئن قتلتها لتقتلني معه . فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجبا :

— يا للرحم .. اني لأظنها ودت اني قتلتها معه

ثم قال : « دعوه لما به » .. كأنه حسب ان العلة قاضية عليه

وعلى هذا هو زين العابدين جد كل منتسب الى الحسين عليهما السلام ، وكان كما قال ابن سعد في الطبقات : « ثقة كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا » ، وكما قال يحيى بن سعيد : « أفضل هاشمي رأيت في المدينة »

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتى ابن زياد !

الرأس عند يزيد

ولما قضى الحبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين في الكوفة وأرباضها ، أنفذه ورؤوس أصحابه الى دمشق مرفوعة على الرماح . ثم أرسل النساء والصبيان على الاقتاب ، وفي الركب علي زين العابدين مغلول الى عنقه يقوده شمر بن ذي الجوشن ومحضر بن ثعلبة .. فتلاحق الركبان في الطريق ودخلا الشام معا الى يزيد

وتكرر منظر القصر بالكوفة في قصر دمشق عند يزيد .
ولا نستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن أنه قد وقع في
التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة في هذا المقام
تستوحى ضرباً واحداً من التعقيب وضرباً واحداً من الحوار
فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة في كربلاء حين
بلغتهم وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

لهم بجانب الطف أدنى قرابة
من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى

وبنت رسول الله ليست بذى نسل
فأسكته يزيد . . وقال وهو يشير الى الرأس وينكت
ثناياه بقضيب في يده : « أتدرون من أين أتى هذا ؟ » أنه
قال : أبى على خير من أبيه وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى
رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر .
فأما أبوه فقد تحتاج أبى وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم
له ، وأما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ،
وأما جده فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى
لرسول الله فينا عدلاً ولا ندا ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم
يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك
ممن تشاء »

وهو كلام ينسب مثله الى معاوية في رده على حجاج على
في الخلافة . . ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد
عليه

ونظر بعض أهل الشام الى السيدة فاطمة بنت الحسين -

وكانت جارية وضيئة - فقال يزيد : « هب لي هذه » ،
فأرعدت وأخذت بثياب عمتها .. فكان لعمتها في الذود
عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة ، ذيادا عن أخيها زين
العابدين ، وصاحت بالرجل :

- كذبت ولو مت .. ما ذلك لك ولا له

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، ان ذلك لي .. ولو شئت
لفعلت »

قالت : « كلا والله .. ما جعل الله لك ذلك ، الا أن تخرج
من ملتنا وتدين بغير ديننا »

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « اياي تستقبلين بهذا ؟
انما خرج من الدين أبوك وأخوك »

قالت : « بدين الله ودين أبي وأخي وجدى اهتديت أنت
وأبوك وجدك »

فلم يجد جوابا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله »
فقالت : « أنت أمير تشتم ظالما ، وتقهر سلطانك »
فأطرق وسكت ...

وأدخل على بن الحسين مغلولا ، فأمر يزيد بفك غلله
وقال له :

- ايه يا ابن الحسين .. أبوك قطع رحمى وجهل حقى
ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت ..
قال على :

- ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى
كتاب من قبل أن نبرأها . ان ذلك على الله ليسير ، لكيلا

تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » • فتلا يزيد الآية : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » • ثم زوى وجهه وترك خطابه • •

وكان لقاء نساء يزيد خيرا من لقائه • • فواسين السيدة زينب والسيدة فاطمة ومن معها ، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكر بلاء فيرددن اليهن مثله وزيادة عليه • •

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ الى النعمان ابن بشير واليه الذي عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين • • وأمره أن يسير آل الحسين الى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم • وقيل أنه ودع زين العابدين ، وقال له : « لعن الله ابن مرجانة • • أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبدا الا أعطيته اياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى • ولكن الله قضى ما رأيت يا بنى ! • • كاتبنى من المدينة ، وأنه الى كل حاجة تكون لك »

تبعة يزيد

والناس فى تقدير التبعة التى تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب واهواء ، يرجع كل منهم الى مصدر من مصادر الرواية فيبنى عليه حكمه • •

فمنهم من يرى أنه برىء من التبعة كل البراءة • • ومنهم من يرى أنه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها • • ومنهم من يقول أنه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعهم وهو مستطيع أن يمنعهم لو شاء

والثابت الذى لا جدال فيه ، أن يزيد لم يعاقب أحدا من ولايته كبر أو صغر على شيء مما اقترفوه فى فاجعة كربلاء ، وأن سياسته فى دولته بعد ذلك كانت هى سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة مما حدث فى كربلاء . فاستباحة المدينة - دار النبى عليه السلام - وتحكيم مسلم بن عقبة فى رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجرى هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره . وما زال يزيد وأخلافه يأمرؤن الناس بلعن على والحسين وآلهما على المنابر فى أرجاء الدولة الإسلامية ، ويستفتون من يفتيهم بأهدار دمهم وصبوب عقابهم بما أصابهم . ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب فى رأى لاعنيه

ومن أفرط فى سوء الظن ، رجح عنده أن عبيد الله بن زياد كان على اذن مستور بكل ما صنع ، ويملى لهم فى هذا الظن أن استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لورثة الملك فى بيته وعقبه ، ويفيده أن يقدم عليها مستترا من وراء ولايته ثم ينصل منها ويلقى بتبعاتها عليهم . ولو لم يكن ذلك لكان عجيبا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله الى والى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه . . فقد كان الزمن الذى انقضى منذ خروج الحسين من مكة الى نزوله بالطف على الفرات كافيا لبلوغ الخبر الى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضرورى فى هذا الموقف لوالى الكوفة وغيره من الولاة ، فان لم يكن الأمر تدبيرا متفقا عليه فهو المساءة التى تلى ذلك التدبير فى السوء والشناعة ، وهى مساءة التهاون الذى

لا تستقيم على مثله شئون دولة . وقد روى ابن شريح
اليشكري أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما
قتلى الحسين فانه أشار الى يزيد بقتله أو قتلى فاخترت قتله »
وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب الى الظن
بإيعازه وتدبيره . . . لانه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبل
ولاته على غاربهم وهو لاه بصيده وعيثه ، وأنه ربما ارتاح
فى سريره بادية الأمر الى فعلة ابن زياد وأعوانه . . . ولكنه
ما عثم أن رأى بؤادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال
من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد
الى المحامسة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن فى
يقظته على هذا معتصما بالحكمة والسداد

ولقد رأى البؤادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على
ذبوع الخبر فى بيته قبل عاصمة ملكه . . . فنعى ابن الحكم
فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن
ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول اذا
سئل : « نبكى على بنى أمية لا على الماضين من بنى هاشم »

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البؤادر
ثم يجهل أنها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة ، ولن
تهون جريرتها فى الحاضر القريب ولا فى الآتى البعيد . . .
والواقع أنها قد استتبعت بعدها جرائم شتى لا جريرة
واحدة ، وما تنقض جرائمها الى اليوم . . .

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة فى ثورة حنق جارف
يقتلع السدود ويخترق الحدود . . . لأنهم حملوا اليها خبر

الحسين محمل التشهير والشماتة • وضجك واليهام عمرو
ابن سعيد حين سمع أصوات البكاء والصراخ من بيوت آل
النبي ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجت نساء بني زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرتب
وكانت بنت عقيل بن أبي طالب تخرج في نساها حاسرة
وتنشد :

ماذا تقولون ان قال النبي لكم :
ماذا فعلتم وأنتم آخـر الأُمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدى

منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم

أن تخلفوني بسوء في ذوى رحمي
فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون
كما قال عمرو بن سعيد : « ناعية كناعية عثمان »

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على
باب عثمان وهو يذود عنه ويجهده في سقيه وسقى آل بيته
• • ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول

ثورة المدينة

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم في تليفق
« المظاهرات الحجازية » ، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن
اللاعج والأسى الدفين • وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم
على نسيان خطب الحسين واصطناع الولاء المقتصب ليزيد •
فحملوا الى دمشق وفدا من أشرف المدينة لم يلبثوا أن عادوا

اليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته ، وراحوا يقولون لأهل المدينة : « أنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطناير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخراب »

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الانصارى وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : « لو لم أجد الا بنى هؤلاء - وكان له ثمانية بنين - لجاهدت بهم * وقد أعطاني وما قبلت عطاءه الا لا تقوى به »

والتهمت نار الثورة بالآل المكظوم والدعوة الموصولة ، فأخرج المدنيون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدا بعد واحد حتى قتلوا جميعا ، وقتل بعدهم أنفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته

وبدا فى ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرا ولا قليلا من عبرة كربلاء ، لانه سلط على أهلها رجلا لا يقل فى لؤمه وغله وسوء دخلته، وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ، وهو مسلم بن عقبة المرمى . فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيخ مدينتهم ثلاثة أيام ان لم يبادروا الى طاعته ، وكان شرطه الذى سامهم اياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الايام الثلاثة التى انتظر فيها طاعتهم « انهم يبائعون أمير المؤمنين على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم ما شاء »

واذا كان شىء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح

فى الظلم من استباحة الارواح والاعراض فى جوار قبر النبى عليه السلام . . فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقي على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذى أبلاه، ولم يبل ما فى بطويته من رجس ومكيدة . « فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الاقدام فى الدم وقتل أبناء المهاجرين والانصار »

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفسدة العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » . ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الاعراض حتى يلتذ بأثارة الآمال والمخاوف فى نفوس صرعاة قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل ابن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله : « أعطشت يا معقل ؟ حوصوا له شربة من سويق اللوز الذى زودنا به أمير المؤمنين » . فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا . . وأمر بضرب عنقه . . »

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الانصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان . .

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث من أمثاله . . دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الانصار ومعها ضبى لها . فقال : « هل من مال ؟ »

قالت : « لا . . والله ما تركوا لنا شيئا »

قال : « والله لتخرجن الى شيئا أو لا تقتلنك وضبيك هذا »

فقلت له : « ويحك .. أنه ولد ابن أبي كبشة الانصارى صاحب رسول الله » فأخذ برجل الصبى والثدى فى فمه ، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الارض وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التى قتل فيها أولئك الالوف من النسوة والأطفال والآباء والأمهات ..

وقد مات هذا السفاح وهو فى طريقه الى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة .. فدفن فى الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه

جريرة العدل

ولم تنقضى سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه ، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التى حاقت بكل من مديدا الى الحسين وذويه ..

فسلط الله على قاتلى الحسين كفوا لهم فى النعمة والنكال يفل حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذى يعرفونه . وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى داعية التوابين من طلاب ثار الحسين . فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم فى نصرته ، وأن يتعاهدوا على الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مزال القبر فى العراق ..

فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمر بن سعد ، ولا شمر ابن ذى الجوشن ، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولى بن يزيد ،

ولا أحد ممن أخصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم
بالسلب والمهانة الى الموتى أو الاحياء ..

وبالغ فى النعمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب
الهاربين، وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله ..
فقتل عبيد الله وأحرق ، وقتل شمر بن ذى الجوشن وألقيت
أشلائه للكلاب ، ومات مئات من رؤسائهم بهذه المثلثات
والوف من جندهم وأتباعهم مغرقين فى النهر أو مطاردين
الى حيث لا وزر لهم ولا شفاة . فكان بلاؤهم بالمختار عدلا
لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالاثمين سلمت من اللوم
أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار

ولحقت الجريرة الثالثة بأعقاب الجريرة الثانية فى مدى
سنوات معدودات .. فصمد الحجاز فى ثورته أو فى تنكره
لبنى أمية الى أيام عبد الملك بن مروان، وكان أخرج الفريقين
من سيق الى أخرج العاملين . وأخرج العاملين ذاك الذى دفع
اليه - أو اندفع اليه - الحجاج عامل عبد الملك .. فنصب
المنجنيق على جبال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران
فهدمها وعفى على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية ..
فقد كان قائده الذى خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة
أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والاحراق

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك
بنى أمية ، وأخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه فى دولة بنى
العباس .. فعموا بنقمتهم الاحياء والموتى ، وهدموا الدور،
ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار

ابن أبى عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم
وأمية يوم مصرع الحسين

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت
الحرام ، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم
وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين . فلم ينتصر عليهم
المنكرون والمنازعون بشيء كما انتصروا عليهم بضربات
أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة ، حتى ذهبوا بها
مضروبين الى آخر الزمان

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء . فاذا بالدولة
العريضة تذهب في عمر رجل واحد مديد الايام ، واذا
بالغالب في يوم كربلاء أخسر من المغلوب اذا وضعت الاعمار
المنزوعة في الكفتين



نهایة المطاف

من الظافر ؟

غبن أن يفوت الإنسان جزأه الحق على عمله وخلقه . .
وأثقل منه في الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن
بالإساءة ، ويجزى المسيء بالإحسان
وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ،
ووجهة للشريعة والدين .

والجزء الحق هو الوجهة الواحدة التي تلتقى فيها كل
هذه المقاصد الرفيعة . . فإذا بطل الجزء الحق ففي بطلانه
الاخلال كل الاخلال بمعنى التاريخ والأخلاق ، ولباب
الشرائع والأديان . وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل
الإنساني بالتشويه والخسار

والجزء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل
الإنساني كرامة لنفسه ويقينا من صحته وحسن أدائه ،
كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضا للبصر يرتاح الى تحقيقه
ويحزن لفواته وان لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقاب ، لان
النظر الصحيح سلامة محبوبة والاخلال به داء كريه

ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه
التي تزرى بكرامة العقل الإنساني ، كاستهدافه لها وهو

فى مصطدم التضحية والمنافع ، أو فى الصراع بين الشهداء
وأصحاب الطمع والحيلة ..

ففى هذا المصطدم يبدو للنظرة الاولى ان الرجل قد أضعاع
كل شىء وانهزم ، وهو فى الحقيقة غائم ظافر
ويبدو لنا أنه قد ربح كل شىء وانتصر وهو فى الحقيقة
خاسر مهزوم ..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة
البحث فيه ، لانه المدخل الذى يقضى الى الجزاء الحق والنتيجة
الحقة ، وينتهى بكل عامل أفلح أو أخفق فى ظاهر الأمر
الى نهاية مطافه وغاية مسعاه فى الأمد الطويل



وقد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن على ويزيد
ابن معاوية بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيص
الجزاء الحق فى أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ،
فقلما تتاح فى أخبار الأمم شرقا وغربا عبرة كهذه العبرة
بوضوح معالمها وأشواطها ، وفى تقابل النصر والهزيمة
فيها بين الطوالع والحوادث ، على اختلاف معارض النصر
والهزيمة ..

فيزيد فى يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذى
لا يشوبه خذلان ..

وحسين فى ذلك اليوم هو المخدول الذى لم يطمح خاذله
من وراء الظفر به الى مزيد ..

ثم تنقلب الآلية أيما انقلاب ..

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان
وكفة الخسران ..

وهذا الذى قصدنا الى تبينه وجلائه بتسطير هذه
الفصول

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلء لدارس التاريخ
ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد فى أطوار هذا الوجود

ولسنا نقول أن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع
لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الايمان
والمآرب الأرضية ، فان لهذا الصراع لوانا تتعدد ولا
تكرر على هذا المثال ، وان له لعناصر لم تجتمع كلها فى
طرفى الخصومة بين الرجلين ، وأشواطاً لم تتخذ الطريق
الذى اتخذته هذه الخصومة فى البداية أو النهاية

ولكننا نكتفى بحقيقة واحدة توجب الاعتبار بهذه الخصومة
وحدها وتفردھا بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهى أن
مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعاً بين خلقين خالدين ،
وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاوزا
أحقاباً غابرات ولا يزالان يتجاوزان فيما يلى من الأحقاب ،
وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين
سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها
بالتعليق والتصديق ..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق
العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه ..

فاذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك فى استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ..

واذا خسر أحد حياته فى سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة فى السمعة والعطف والثناء

فلو جاز هذا لكان العطف الانسانى أزيغ ما عرفناه فى هذه الدنيا من الزيوف ، لان خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيغ فى العروض الاخرى الا وهو ينطلى يوما وينكشف بقية الايام

واذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهيه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الانسان

واذا كانت خسارة المرء فى سبيل ايمانه تجمع عليه كل خسارة ، فالاحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه فى طلابه

فكفى الواصل ما وصل اليه ..

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما أدخرته الانسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون .

وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد ..

فاذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ،

فيزيد لم يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء . . . ولكنه ورث
المنافع التي يشتري بها الايدي والسيوف ، فجال بها جولة
رابحة في كفاح الضمائر والقلوب

فينبغي ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح . .
فينبغي أن يقف به الربح عند ذاك ، وينبغي للعذر الكاذب
والثناء المأجور ألا يحسب على الناس بحساب العذر الصادق
والثناء الجميل

وقد تزلف الى يزيد من يتزلفون الى أصحاب المال
والسلطان ثم أخذوا أجورهم ، فينبغي أن يقوم ذلك الثناء
بقيمة تلك الاجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية
ما استحقوه ، ان كانوا مستحقيه

أما أن يضاف ثناء الخلود الى صفقة أولئك المأجورين ،
فقد أصبح ثناء الخلود اذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة
مضمونة على صفقة كل مأجور . .

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء
المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال
قبل أن يبذل ما لديه من ثناء

وليس في تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا
كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة، تقيمه بحيث أراد المأجورون
من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح
في الموازنة بينه وبين الحسين . .

كل أخطائه ثابتة عليه - ومنها بل كلها - خطؤه في حق
نفسه ودولته ورعاياه . . وليس له فضل واحد ثابت ولا

كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه
فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه
ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه ..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة
وتسليط أمثال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق
الله ..

وكانت له ندحة عن السمعة التي لصقت به ولم تلصق
به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صناعته ومأجوروه ، لأن
واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه في النعمة التي نعم بها مغتصباً ينتزعه
عنوة ، لا يكن حقه في الفضل والكرامة جزافاً لا حسيب
عليه



وتسديد العطف الانساني هنا فرض من أقدم الفروض
على الناظرين في سير الغابرين ، لأن العطف الانساني هو
كل ما يملك التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التي
يحتفظ بها الخلود

واننا لندع الخطأ في سياسة النفعيين ، وننظر اليهم
كأنهم مصيبون في السياسة بصراء بمواقع التدبير
فعلى هذه الصفة لو تمت لهم - لا يحق لخادم زمانه أن
ينازع الشهداء في ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد
التي تتخطى حياة الاجيال كما تتخطى حياة الافراد ..

فان حرمان الشهداء حقهم فى عطف الاسلاف والاخلاف
خطأ فى الشعور ، وخطأ كذلك فى التفكير

والناس خاسرون اذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس
قصارى أمرهم انهم قساة أو جاحدون . لان الشهادة
فضيلة تروح وتأتى وتكثر حيناً وتندر فى غير ذلك من
الاحيان . أما حب المنفعة فان سميته فضيلة فهو من الفضائل
التي لن تفارق الاحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء

على أن الطبائع الانسانية قد أشربت حب الشهداء والعطف
عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة، وانما تنحرف
عن سواء هذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن
تستقيم معها . وأكثر ما تأتى هذه العوارض من تضليل
المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة فى الطبع تغريه
بالضغن على كل خلق سوى وسجية سمحة محببة الى الناس
عامة ، أو من الافراط فى حب الدعة حتى يجفل المرء من
الشهادة استهواً لتكاليفها واستعظاما للقدوة بها ، فيتهم
الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه
بالجن والضععة ويستحق المذمة واللوم فى رأى ضميره . وان
لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم
موقف ازورار وفتور . . . وجنح الى معذرة الآخريين والتفاهم
بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما
يطمحون اليه

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير
منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار
السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة

التاريخ الصحيح لانها تعرضهم للخطأ فى الحكم والتفكير ،
كما تعرضهم للخطأ فى العطف والشعور

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا - فى العربية -
مؤرخ يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل
الأمر الى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءا للمنكرات ، وهو
الاستاذ محمد الحضرى صاحب تاريخ الامم الاسلامية رحمه
الله

ففى تعقيبهِ على ثورة المدينة التى قدمنا الاشارة اليها
يقول : « ان الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر
الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة
فى امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا
فى وجهه . ولا ندرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع
يزيد ؟ . . . أ يكونون مستقلين عن بقية الامصار الاسلامية ،
لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول
فى أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الامصار
ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الاسلامية ؟ انهم
فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك
حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف
فى معاملتهم بهذه المعاملة . . . فانه كان من الممكن أن يأخذهم
بالحصار »

ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الاستاذ عن هذه الفترة
كلها أن لديه أعذارا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة .
لأنه يفهم كيف يغضب المرء لما فى حوزته ولا يفهم كيف
تضيق به كراهة الظلم وغيره العقيدة عن الاحتمال

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ، لانه يحول بينه وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة ، واستبعادها حيث هي بعيدة عن التقدير فلم يحدث قط في مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر الناس كما أرادهم الاستاذ أن يشعروا أو فكروا في الأمر كما أرادهم أن يفكروا ..

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه أنه لم يحدث من قبل في حركات التاريخ ..

فهذه الحركات التي تواجه الدول المكروهة لا تنتظر - ولا يمكن أن تنتظر - حتى تربي قوتها وعدتها على ما في أيدي الدولة التي تكرهها من قوة وعدة

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترى على ما يهابه الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقناع وضيق الذرع بالأمر، ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان في غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج الى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحرق الى تخبط أغلظ منه وأحرق .. فلا هم يقفون في امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف في بطشه وجبروته ، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه

وعلى هذا النحو يعرف المؤرخ الذي يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبيعتها وما هو خليق أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح في دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها
الذى لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواء



وصل الأمر فى عهد يزيد الى حد لا يعالج بغير الاستشهاد
وما نحا منحاه ..

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه . وهو - بالبداية التى
لا تحتاج الى مقابلة طويلة - منحى غير منحى الحساب والجمع
والطرح فى دفاتر التجار

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضى الى نهاية
مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء .. فانه لو اجد فى
نهاية المطاف أن دفتر التجار لن يكتب الربح آخرا الا فى
صفحة الشهداء

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ،
ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفارقة فتظفر
فى نهاية مطافها بكل شئ حتى المظاهر العرضية والمنافع
الأرضية ..

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون
فى أول الشوط ثم ينهزمون فى وجه الدعوة المستشهدة
حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل
ميزان فاذا هم بكل ميزان خاسرون ..

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ..

ولكن يزيد ذهب الى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة
والخطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته وذو

خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين



وانهزم الحسين فى كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده
ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين
وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها
الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس
فى حلة من النور تخشع لها إلا بصار ..

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الانسان
غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث

أبو الشهداء

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم
أسرة الحسين عدة وقدرة وذكره .. وحسبه أنه وحده فى
تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء فى مئات
السنين ..

وأيسر شىء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب
الملك ليغمزوا به شهادة الحسين وذويه ..

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون فى الوهم والضلال ..

لان طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك
شهيدا قديسا ويطلبه وهو مجرم برىء من القداسة ..

وانما هو طلب وطلب ، وانما هى غاية وغاية ، وانما

المعول فى هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب

فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ،

وسوى فيه بين الغضب والحق وبين الخداع والصدق وبين
مصلحة الرعية ومفسدتها ، ففى سبيل الدنيا يعمل لا فى
سبيل الشهادة

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقا
ولم يطلبه لانه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه
سيموت دونه لا محالة، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الايمان
ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعا للمظلمة
وجلبا للمصلحة كما وضحت له بنور ايمانه وتقواه ، فليس
ذلك بالعامل الذى يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذى
يلبى داعى المروءة والأريحية ويطيع وحى الايمان والعقيدة
ويضرب للناس مثلا يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الاجيال
الكثيرة ..

ومن ثم يقيم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق فى أمثال
هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين ..
وهى أن الشهادة خصم ضعيف مغلوب فى اليوم والاسبوع
والعام ..

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين فى الجيل والاجيال ومدى
الأيام ..

وهى حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت اليها بعين الارض
أو بعين السماء .. على أن تنظر اليها فى نهاية المطاف
ونهاية المطاف هى التى يدخلها « نوع الانسان » فى
حسابه ويوشح عليها وشائج عطفه واعجابه . لانه لا يعمل
لوجبات ثلاث فى اليوم ، ولا ينظر الى عمر واحد بين مهد
ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر الى الخلود

فی عالم الجمال

عاشق الجمال

إذا لحقت السيرة بعالم المثال الذى يتطلع اليه خيال
الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربة
الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى فى عالم الجمال ..
ومن آيات الجمال أنه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على
السلامة ..

فاذا تعلق القريحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور
بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهى
بين يديها وتقبل على الأثم وهى ناظرة اليه ، وتلزمها سجية
العشق الآخذ بالآعنة ، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح
أو عدل عادل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالي
ما يلقاه فى سبيله

وقد تمثأت سجية عاشق الجمال فى كل شعر نظمه شعراء
الحسين وذويه تعظيما لهم وثناء عليهم .. فلم يتجهوا اليهم
ممدوحين وانما اتجهوا اليهم صورا مثلى يهيمن بها كما
يهيم المحب بصورة حبيبه، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم
من ملام وإيلام

وفى معنى كهذا المعنى يقول الكميث شاعر أهل البيت :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب
 ولا لعبا منى ، وذو الشيب يلعب
 ولم يلهنى دار ولا رسم منزل
 ولم يتطربنى بنان مخضب
 ولا أنا ممن يزجر الطير همه
 أصاح غراب أم تعرض ثعلب
 ولا السانحات البارحات عشية
 أمر سليم القرن أم أمر أعضب (١)
 ولكن الى أهل الفضائل والنهى
 وخير بنى حواء ، والخير يطلب
 الى النفر البيض الذين بحبهم
 الى الله فيما نالنى أتقرب
 بنى هاشم ، رهط النبى ، فأننى
 بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
 خفضت لهم منى جناحى مودة
 الى كنف عطفاه أهل ومرحب
 يشنـيرون بالأيدى الى وقولهم
 ألا خاب هذا ، والمشـيرون أخيب
 فطائفة قد كفرتنى بحبكم
 وطائفة قالوا : مسيء ومذنب
 فما سـئـاءنى تكفير هاتيك منهم
 ولا عيب هاتيك التى هى أعيب

(١) السانح الطير الذى يمر من اليسار الى اليمين وعكسه البارح ،
 والاعضب المكسور القرن.

يعيبوننى من خبهم وضلالهم
 على حبكم ، بل يسخرون وأعجب
 وقالوا : ترابى (١) هـواه ورأيه
 بذلك أدعى فيهم وألقب
 على ذاك اجرياي ، فيكم ضريبتى
 ولو جمعوا طرا على وأجلبوا
 وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
 وينصب لى فى الأبعدين فأنصب
 وقد مر بنا حديث زين العابدين رضى الله عنه وهو غلام
 عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد
 لأنه استكبر « أن تكون به جرأة على جوابه »
 فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب
 حيث انعقد ملك الاجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن
 زياد وآله ..

وذهب هشام بن جنده وحشمه يحج البيت ويترضى
 الناس ، فلم يخلص الى الحجر الاسود لتزاحم الحجيج عليه ،
 وانه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس اذا بزى
 العابدين يقبل الى الحجر الاسود فى وقاره وهيبتة ، فيتنحى
 له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل
 .. ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء
 وتهول رجلا من حاشية هشام هذه المهابة التى لم يرها
 لمولاه فيسأل : « من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبة ! »

(١) من كنى على بن أبى طالب « أبو تراب » وترابى نسبة اليه

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتناول
إلى مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : « لا أعرفه » ..
ويقتضب الجواب

وهذا الذي تصدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله
ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله
في كلمتين عابرتين ..

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عبـاد الله كلهم

هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله

بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا بضائره

العرب تعرف من أنكرت والعجم

إذا رآته قریش قال قائلها :

إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

من معشر حبهـم دين ، وبغضهم

كفر ، وقربهم منجى ومعتصم



وتصدى غيند الله بن كثير لأمير مكة - خالد بن عبد الله
- فلعنه وهو قادر على قتله لأنه يلعن عليا وحسينا في
خطبه ، وأنشد :

لعن الله من يسب عليا وحسينا من سذوقه وامام
أيسب المطهرون جدودا والكرام الآباء والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأمن آل الرسول عند المقام
طببت بيتا وطاب أهلك أهلا أهل بيت النبي والاسلام
رحمة الله والسلام عليه كلما قام قائم بسلام



وتنقضى السنون وتتسامع العربية بشاعر فحل لم يسلم
من لسانه أحد ، ولم ينزه أحدا من المجزئين له أو المقتربين
عليه عن استحقاق الهجاء . فكان ينشد الأبيات المقذعة
ويسأل عن صاحبها فيقول : « لم يستحقها أحد بعينه بعد ،
ولسوف يستحقها كثيرون »

هذا الشاعر العجيب هو ذعبل الخزاعي الذي يهز أوتار
النفوس بأمثال هذه الأبيات في آل البيت :

مدارس آيات خلّت من تلاوة
ومنزّل وحى مقفر العرصات !
لآل رسول الله بالحيف من منى
وبالركن والتعريف والحجرات
ديار علي والحسين وجعفر
وحمزة والسجاد ذى الثفّات (١)
ديار عفاها كلّ جون مبنادر
ولم تعف للأيام والسنين

(١) كان علي بن الحسين يلقب بذى الثفّات لأن جبهته أصبحت كثفنة
البعير - أى ركبته - من كثرة السجود

الى أن يقول :

ملا مك في أهل النبي فانهم
أحببى ما عاشوا وأهل ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصيرة
وزد حبهم يا رب فى حسناتى
أحب قصى الرحم من أجل حبهم
وأهجر فيهم أسرتى وبناتى
لقد حفت الأيام حولى بشرها
وانى لأرجو الأمن بعد وفاتى
ألم تر أنى من ثلاثين حجة
أروح وأغـدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما
وأيديهم من فيئهم صـفـرات
قال رسول الله نحف جسومهم
وآل زياد حفـل القصرات (١)
بنات زياد فى القصور مصبونة
وآل رسول الله فى الفلوات !
إذا وتروا مدوا الى أهل وترهم
أكفا عن الأوتار منقبضات !



ووهب على بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه

(١) القصرة الرقبة ، وحفل القصرات أى غلاظ الرقاب من السمن

المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل « قم »
ثلاثين ألف درهم ليبيعهم الخلعة فضمن بها . ثم ترصدوا له
فى الطريق ليأخذوها منه عنوة تبركا وذكرى . فسمح بالمال
ولم يسمح بالخلعة . . واسترضوه فلم يرض إلا أن يعطوه
كما من أكمامها ليدفن معه فى كفنه . وتقسموا الخلعة بينهم
فخورين بها غير مباليين ما بذلوه فى ثمنها

وانقضت فترة لم تطل . . وتسامعت العربية بشاعر
آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح
ذلك هو أبو العباس على بن الرومى الذى نسى ممدوحيه
من آل طاهر وبنى العباس ليذكر حق حفيد الحسين يحيى
ابن عمر الشهيد ، ولو كلفه ذكره القتل والحرمان

وفى بعض ما ساقه من النذر لأمرأه زمانه مهلكة له قلما
يفلت منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته
الجيمية :

غررتم لئن صدقتم ان حالة
تدوم لكم ، والدهر لونان ، أخرج
لعل لهم فى منطوى الغيب أثرا .
سيسمو لكم والصبح فى الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته
له زجل ينفى الوحوش وهزمج (١)
يود الذى لاقوه أن سـلاحه
هنالك خلخال عليه ودمالج

(١) الهرمجة اختلاط الصوت ، والمجر الجيش الكبير

فيدرك ثار الله أنصـار دينه
ولله أوس آخرون وخـزرج
ويقضى امام الحق فيكم قضاءه

مبيناً ، وما كل الحوامل تـخدج
وكل أولئك شاعر ينسى التقوى فى مواطن شتى من
عمله وقوله ولا ينساها فى حق الشهداء من آل الحسين
وصحبه .. لأنه يحس الجمال احساس الشـسعراء ويهتز
«للصورة المثلى» اهتزاز الأريحية التى يحلم بها رواد الخيال .
فهم هنا بمربأة من قيود العيش ووساوس الحاجة وأعباء
النوازع الأرضية ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغى أن
يقال .. فيجرى على لسانهم كأنهم مسوقون إليه ..

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء
الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل فى
نوال ، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال ..



وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه
كان سىء الظن بالناس أجمعين .. وكان يقول ما بدا له
فى الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن
شأوهم فى السابقين . أو اللاحقين

ذلك هو أبو العلاء المعرى حيث قال فى الفجر والشفق :
وعلى الدهر من دماء الشهيد
ين على ونجله شاهدان

فهما في أواخر الليل فجرا
ان وفي أولياته شفقان
ثبتا في قميصه ليحيى الحشـ
ر مسـتعديا الى الرحمن
وان وحى الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكما من
لسان التاريخ اذا اختلف الحكمـان
ولكنهما قد توافيا معا على مقال واحد .. فجلوا لنا من
سيرة الحسين رضى الله عنه صورة الجمال في عالم المثال ،
وكذلك يعيش ما عاش في اخلاص الناس



فهرس

صفحة

مقدمة	٥
مزاجان تاريخيان	٩
الخصومة	٢٣
الخصمان	٣٧
أعوان الفريقين	٦٥
خروج الحسين	٧٥
هل أصاب ؟	٩٥
كربلاء	١١٧
جريدة كربلاء	١٤٧
نهاية المطاف	١٦٥
في عالم الجمال	١٧٩

الكتاب القادم :

بطلة كربلاء

زينب بنت علي

تأليف الدكتورة بنت الشاطيء

يصدر في ٥ اكتوبر القادم

وكلاء مجلات دار النهضة

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه - السور - العسيلي

المدخل الشمالى . ص . ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعسانى

حمص : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

حمص : السيد عبد السلام المباعى - ص . ب ٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس - ص . ب ٩٧

بغداد والعراق : السيد محمد جواد حيدر - مكتبة المعارف -

بسوق السراى - بغداد

البحرين والخليج
الفسارسي : السيد مؤيد أحمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
البحرين

The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

ساحل الذهب :

Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

نيجيريا :

Mr. Abdella B.M. Assoub, B.P. 156
Auad Ahardan No. 18, Tanger, Maroc.

المغرب :

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E., 26.

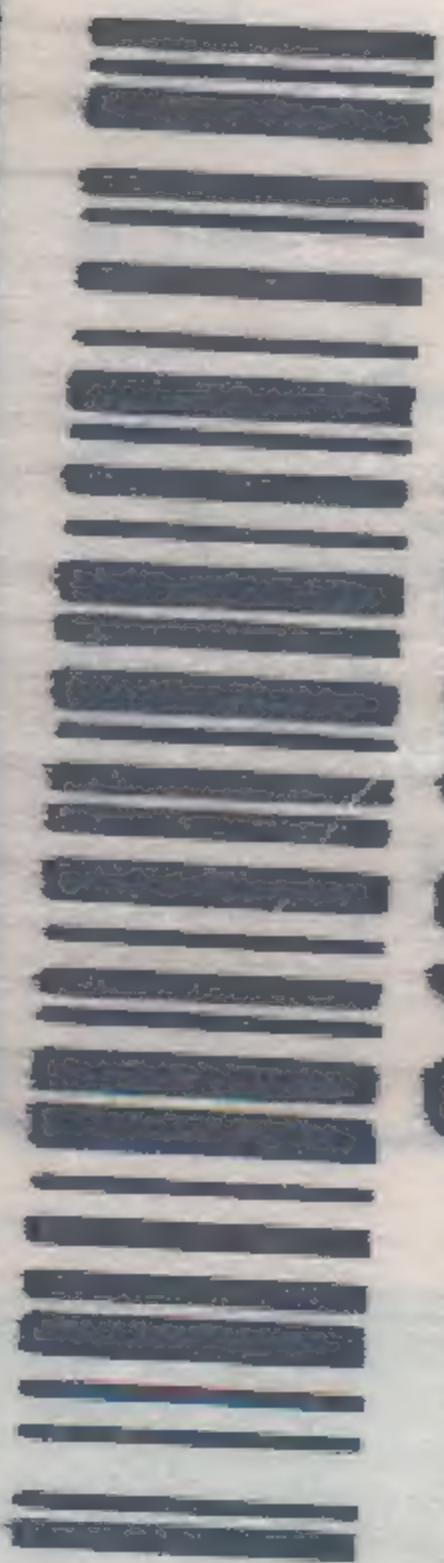
هذا الكتاب

أبو الشهداء ٠٠ أو شهيد الاسلام الأكبر الحسين
ابن علي، سبط النبي محمد (ص) وابن فاطمة الزهراء ،
وامام أصحاب العقائد ، وخدام الأمثلة العليا، وسيد
شباب العرب الذي ضحى بحياته في سبيل اليقين ،
وفي سبيل العمل الخالص لوجه الحق والكمال

هذا هو الكتاب الذي نقدمه في هذا الشهر . وهو
مأساة تاريخية فذة ، وقصة حياة عظيمة امتلأت
بأمثلة النبل والشجاعة ، واستشهد صاحبها لخير
الانسانية التي تتعطش في كل زمان الى دماء الشهداء
وقد تناول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد هذه
المأساة ، فحلل أسبابها وأحداثها ، وقارن فيها بين
الطالبين والامويين وطبائع كل من الفريقين، وتحدث
عما كان للحسين وأنصاره من أريحية كريمة تسمو
بمناقبتها على خسة يزيد بن معاوية وأنصاره

وفي حياة الحسين من فضائل النفس
الجهاد في سبيل العقيدة ما ينبغي أن
صاحبة لشباب العروبة المتوثب ٠٠ ونح
« سلسلة كتاب الهلال » الى أن يكون
يشتمل على أمثلة نافعة يقتدى بها ، أو
يقف منها القراء على سير الحياة وطبائع

Bibliotheca Alexandrina



0491353